CAUCASIAN LION

منير عتيبة

أسد القفقاس

KOTOPIA PUBLISHING HOUSE
كتوبيا

رواية

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

أسد القفقاس

روايه..

منير عتيبة.

عن الرواية..

نحن الآن فى سنة ١٢٨٧هـ ١٨٧١م.

تحقق أمل أبى. مات فى مدينة رسول الله. شيعه كل أهل المدينة وزائروها وعلماؤها. دفن بجوار قبة العباس عم رسول الله ﷺ.

بكيت أبى كثيرا.

أزور قبره كل يوم

ألاحظ أن عصفورا جبليا يقف فوق القبر. يغرد كأنه يدعو أخبرت شنيعات. قالت لى:

إنه عصفورى الجبلى يا كريمة. إنه شامل يزورنا من مثواه بالجنة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل البداية

لم يعدْ خافيًا على أحدٍ أن اللغة العربيّةَ قديمًا كانت لغة خاليةً من النقاط، وانما وضعت النقاطُ في العصور المتأخرة لكثرة دخول العجمِ إلى الإسلام وتسهيلًا عليهم لئلا يلحنوا في القرآن أو يتركوا شيئًا من أشعار العربِ أو أدبِهم.

لحقت النقاطُ أيضًا بحرف الـ"ى" إذا كتبَ متطرفًا، وإن كانت المدرسةُ المصريةُ هي الوحيدة التى ثبتت على كتابتها "ى" بغير نقطتين. واللغويون يقولون أن طريقتى الرسم صحيحتان لا خطأ في أىّ منهما.

هذه الرواية مكتوبة كما أثبتت المدرسة المصرية في رسم حرف الـ "ى" المتطرف، فلزم التنبيه هنا لئلا يتخيل القارئ العزيز أن كلمة "الذى" مرسومةٌ بشكلٍ خاطئ.

فريق عمل كتوبيا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كريمة.. العالم فى حجرة أبى

تأخر أبى اليوم أكثر من المعتاد. يزداد تأخره يوما بعد آخر فى الفترة الأخيرة. ويزداد قلقى عليه. أعلم ما يشعر به، وما يفكر فيه. لكنى لا أملك له شيئا.

هل أذهب إليه الآن؟

أحيانا يسعده أن أذهب إليه. نتحدث. نضحك، أو أضحك أنا بينما هو يبتسم بوقار وشجن. لكنى أحيانا أشعر أنه يتضايق من وجودى معه هناك. كأننى شاركته فى عالم يملكه وحده. أو كأننى ضيعت عليه شيئا كاد يمسكه بيديه أو يتيقنه بروحه.

يميل إلى الانفراد بنفسه. يزهد فى الحديث. يستبطن مشاعره الداخلية. يعيد تقييم حياته الطويلة. يحاسب نفسه بشدة على كل ما فعله. وبشدة أكبر على ما لم يفعله.

أنا وإخوتى وكل من رافقوه فى رحلته إلى الحج؛ لم نشعر بغربة فى المدينة المنورة، مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم. لهذه المدينة سر ما. سر يجعلها تحل فى نفسك محل بلدك الأصلى بمجرد مقامك فيها. لا تقوم بدور البديل. لكنها تمثل سلوى عظيمة. لعله هو نفسه السر الذى به احتضنت رسول الله وصحبه ودعوته.

أفتح شباك حجرته. أطل منه بأمل أن أراه قادما. الشارع شبه خال من المارة. الجو بعد صلاة العصر شديد الحرارة. لكنه هناك. أعرف أنه هناك. وبالتالى فهو لا يشعر بحرارة الجو من حوله.

ها هو قادم من بعيد. ها هو يقترب.

لا.. لا أحد.

ما بك يا كريمة؟ القلق سيجعلك تخرفين وترين خيالات خارجة من رأسك أنت فقط.

لن أدع نفسى نهبا لقلقى عليه. صحته فى الأيام الأخيرة غير مطمئنة. سأرتدى ملابسى وأذهب إليه حالا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ألتقى فى طريقى بالسيدة زهيرة؛ جارتى، قادمة من السوق. أسلم عليها. نتحادث قليلا. تعرض علىّ إرسال خادمتها معى. أشكرها. أواصل طريقى إليه.

ترف على شفتي ابتسامة. عندما أخبرته بما حكته لى السيدة زهيرة؛ ضحك. كانت من المرات القليلة التى أسمع فيها لضحكته صوتا. الأميرة الهندية التى أسلمت رغما عن أهلها، ثم ماتت وهى تصلى. ودفنت فى الهند. ثم وجدوا جثمانها فى البقيع بالمدينة مكان جثمان رجل غير صالح دفن بالبقيع. لأن أرض البقيع لا تحتضن إلا أجساد الصالحين.

إنها حكايات الجهل يا ابنتى!

ثم يبتسم. ويخبرنى عما يروجه أحد حراس مقابر البقيع. يقول إنه يرى فى كل ليلة قوافل إبل من نور أبيض، وقوافل إبل من قطران أسود. على الأولى أكفان بيضاء تفوح منها رائحة مسك فردوسية. وعلى الأخرى مزق سوداء نتنة الرائحة. تجلب الأولى كل ليلة أرواح وأجساد المؤمنين الصالحين الذين ماتوا فى أى مكان فى الدنيا. وتدفنهم فى البقيع. وتأخذ الأخرى أرواح وأجساد من دفنوا بالبقيع من غير الصالحين.

عندما سأله أبى:

ومن يقود تلك القوافل؟

يقود قوافل النور ملائكة من نور، وجوههم مبتسمة. ويقود قوافل الإبل السوداء ملائكة غلاظ شداد، متجهمى الوجوه.

وأين يذهبون بأرواح وأجساد غير الصالحين؟

يذهبون بها بعيدا.

بعيدا أين؟

والله يا شيخ هذا لا أراه. أنا أصف لك ما أراه بعيني فقط (!!) ربما يلقونها فى أعماق الجحيم.

ويضحك من جديد..

العامة يخترعون الحكايات. ويضيفون إليها. ويصدقونها حتى لو كانت منافية للعقل. فاحذرى أن تصدقى أى شيء دون أن تعرضيه على إيمانك وعقلك.

لكننى أعلم أن مقابر البقيع مباركة.

إنها أكثر من مباركة يا ابنتى. إن بها أكثر من عشرة آلاف صحابى ومعظم أمهات المؤمنين، وإبراهيم ابن النبى، وبنات النبى، والعباس عمه، والحسن حفيده. وغيرهم وغيرهم. ووصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها مقبرة بين سيلين غربية، يضيء نورها يوم القيامة ما بين السماء إلى الأرض، وقال لأم قيس : ترين هذه المقبرة، يبعث منها سبعون ألفًا، وجوههم كالقمر ليلة البدر، يدخلون الجنة بغير حساب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أراه من بعيد. واقفا يتأمل مقابر البقيع. أقترب منه. تجاوز الثانية والسبعين من عمره. يتوكأ على عصا سوداء ذات مقبض فضى.

لكنه ما زال مشدود القامة كفارس أمضى عمره كله فوق حصان. لم يشعر بوجودى بجانبه. وقفت صامتة.

داعب ذقنه الطويلة ثلجية البياض. تأمل بعينيه الحادتين القبور المنثورة أمامه بخشوع ومحبة:

يا سادتى! هل يتحقق حلمى وأدفن معكم؟ أغسل بدموعى أقدامكم الطاهرة.

تلوح ابتسامة وليدة على شفتيه وهو يتخيل نفسه مدفونا بجوارهم. ثم يمسحها بسرعة كذنب يكفر عنه:

لا يا فتى! لا تستحق كل هذا النعيم!

رفع عصاه. وضعها بمحاذاة كتفه الأيمن. أغلق عينه اليسرى. أطلق بفمه صوت فرقعة كأنه يطلق رصاصة من بندقية. ضحك بشدة:

رائع! ضربة صائبة!

عاد يجعد ملامحه غير راض عن نفسه:

بل طائشة! ضربة طائشة يا فتى!

ألقى العصا على الأرض. تأمل قبور صحابة رسول الله بالبقيع. هطلت دموعه:

السلام عليكم يا سادتى! لا أستطيع أن أمنع نفسى من الحلم بأن أدفن معكم. لكنني أعلم علم يقين أننى أقل من أن أحلم بذلك. لطالما تمنيت أن أموت شهيدا. تنطلق روحى من عقال هذا الجسد الفانى وهو يسقط من فوق حصان منطلق بين الغابات الكثيفة، ككثير من صحبى وأتباعى. أو تغادره وهو راكع أو ساجد قبيل معركة يستمد العون من الله. أو بعيد معركة يسجد لله

شكرا على النصر. يا سادتى! وها أنتم ترون، ما زالت روحى سجينة الجسد الذى يعمل فيه الزمن بمعاوله، لم أرزق الشهادة. وفى النهاية استسلمت. نعم استسلمت.. استسلمت.

ألقى بجسده على الأرض بجوار العصا. مسح دموعه بكمه. أمسك العصا. أشار بها إلى شيء فى الفضاء لا يراه إلا هو:

لماذا استسلمت يا فتى؟ لماذا لم تقاتل حتى النهاية؟

لكن أية نهاية؟ نهايتى أم نهاية من كانوا معى؟ وهل ألقى بهم إلى هلاك محقق بعد أن تخلى عنا الجميع؟

كان يجب أن تحاول. لا تستسلم.

أنا لم أستسلم بسهولة، لم أستسلم بسهولة.

لكنك فى النهاية استسلمت. هل خفت من الموت؟ هل حرصت على الحياة لدرجة أن تلقى سلاحك وتمد يديك إلى العدو يكبلهما، وتضع مصيرك بين يدي رحمة عدوك؟

لم أخف الموت. ولم أختر الحياة لأجل نفسى. بل لأجل من كانوا معى. كنت مسئولا عنهم.

ولم يكن يحق لى أن ألقى بهم إلى التهلكة.

خمسة وعشرون عاما تخوض غمار حروب مهلكة، فلماذا لم تكن تفكر فى التهلكة، هل ضعفت فاستسلمت؟ أم يئست من النصر فألقيت السلاح؟

نصر؟ أى نصر؟

النصر النهائى على العدو.

ومن قال أننى كنت أبحث عن النصر النهائى أو أنتظره؟

فلماذا يا فتى؟ لماذا إذن؟

يا أبى! يا أبى!

اقتربت منه. أفاق. لاحظ أنه ما يزال يرفع العصا فى الفضاء تجاه الآخر الذى كان يحاسبه. نظر إلىّ. ابتسم.

ألن تعود إلى البيت يا أبى؟

ينظر إلى تربة البقيع الرمادية، والقانية. يرفع يديه أمام وجهه. ينظر إلى السماء:

السلام عليكم دار قوم مؤمنين. أتاكم ما توعدون. غدًا مأجورون. وإنا إن شاء الله بكم لاحقون. اللهم اغفر لأهل البقيع. السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين. ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين. وإنا إن شاء الله بكم للاحقون.

يمسح على صدره بيديه. يلتفت إلىّ:

هيا يا ابنتى!

ناولينى شربة ماء يا كريمة.

كان وجهه متغير اللون كمن عاد من سفر طويل. جسده الممدد فوق السرير ينتفض انتفاضات خفيفة. ناولته الماء. شرب وحمد الله. تعلقت عيناه بسقف الحجرة. اتسعت عيناه. همهم بشئ لم أسمعه. عيناه تتحركان فى كل أرجاء الغرفة. يبتسم. يكشر عن أسنانه. يتهلل وجهه. تنزل من عينه دمعة. تنضغط ملامحه بألم. تنفرج أساريره.. قرأت على صفحة وجهه كل ما يمكن أن يمر به إنسان من مشاعر فى حياته كلها. رأيت فى عينيه انعكاسا غريبا لجبال داغستان الشامخة يكسو قممها الجليد، إنه يحب

هذه الجبال. يعشق الغابات التى أرى ظلال فروع أشجارها الآن تتحرك فى بؤبؤي عينيه. أسمع صوته بصعوبة:

يا كريمة! يا كريمة!

أقترب بأذنى من فمه:

ما الذى أتى بكل هؤلاء إلى حجرتى؟ كيف تسعهم الحجرة؟

نظرت حولى. لم أر أحدا. لكنه كان يراهم بالفعل. كانوا يقينا معه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذكاو..الولد الضعيف.. الولد السعيد

لا إله إلا الله

لا إله إلا الله

لا إله إلا الله

تبدأ أصوات المريدين خافتة، مهموسة. ثم تعلو. وتعلو. ببطء لكن بحماس. تخرج الأصوات من منطقة جوانية فى القلوب. تتردد فى الحناجر كرنين الذهب. تهتز الأجساد بوقار. تهتز الأجساد بنشوة. تنفصل الروح مخلفة ورائها الجسد. تحلق فى أعلى عليين. ترى ما لا عين رأت. تسمع ما لا أذن سمعت. تتصاعد فى الغرفة روائح فردوسية تتنفسها الأرواح الواجدة. يتجسد عذاب الأرواح فى اشتياقها إلى الحبيب ونأيها عنه. يعلو بها الوجد ويسمو. يشدها الجسد إليه. ترهق الجسد بالحركة والصوت لتقتل قدرته على الجذب. يشف الجسد فى نغمات الكلمات. تذوب الروح فى معانيها التى لا تبلى، ولا تنقضى، ولا منتهى لأسرارها.

لا إله إلا الله

لا إله إلا الله

لا إله إلا الله

يشتت روحى الأنين الخافت الذى يأتينى من الحجرة المجاورة. ربما لا يسمعه غيرى. ربما لا يوجد أنين. لكننى أعرف أنها هناك تتألم. تنطلق عيناي عبر شباك الحجرة. السماء مظلمة تماما إلا من نجم صغير لامع فوق إحدى القمم الثلجية. يتعالى صوت الأنين فى سمعى. يخرجنى من كتلة الروح العلوية التى دمجت كل

المريدين معا فى تعاليهم فوق الدنيا. الأنين دنيوى. الأمل الذى ينقر قلبى الآن دنيوى. النجم البعيد الذى يزداد لمعانه الآن دنيوى وربما علوى أيضا.

لا إله إلا الله

لا إله إلا الله

لا إله إلا الله

تهدأ الأجساد تدريجيا. ينسحب الصوت إلى الداخل ليستقر نعيم سياحة الروح بأعماق القلب. تتلألأ العيون بمباهج علوية. تنفرج أسارير النفوس فتنبسط الملامح مرتاحة. اللهم امنحنى الليلة الولد الذى أتمنى. زوجتى ابنة سيد قبائل الآفار تعانى الآن آلام المخاض. ربى لن أرفض عطيتك لكنى بحاجة إلى غلام يكون لى سند. أدعوك بدعاء أنبيائك من قبل. هب لى غلاما زكيا. يعلو صوت امرأتى فى الحجرة المجاورة. أسمع حركة النساء واضطرابهن. أفكر فى ترك المريدين والذهاب سريعا للاطمئنان عليها. لا أجرؤ على تنفيذ الفكرة. هل يمكن أن يحدث لزوجتى مكروه. اللهم لا. اللهم لا.

لا إله إلا الله

لا إله إلا الله

لا إله إلا الله

يمسح الشيخ الكبير على وجهه وصدره بيديه بعد أن يختم دعاءً صامتا. يفعل الآخرون مثله. وأفعل أنا. كان دعائى أن تنجو امرأتى وأن أرزق بغلام. لا أستطيع التركيز فيما يقوله الشيخ. يفيض فى ذكر سيرة سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه. على النبيل

المقاتل من أجل الحق. صراخ امرأتى الآن مسموع للجميع. ليس مجرد هواجس بقلبى. يصمت الشيخ قليلا. ينظر إلىّ. يبتسم ابتسامة طيبة كأنه يمسح بها قلبى. أشعر ببعض الراحة. وبعض الاطمئنان. ينظر إلى الجميع نظرة آمرة. يفعلون جميعا مثله وأنا معهم. نرفع الأيدى ونردد خلفه دعاء حارا أن ينجى الله زوجتى ويرزقنى ذرية صالحة مؤمنة تجاهد فى سبيله.

لا إله إلا الله

لا إله إلا الله

لا إله إلا الله

يرددها الجميع بعد انتهاء الدعاء. أنظر إلى الحقول خارج البيت. هل أنا محظوظ؟. ربما أكون فقيرا. لكننى لست فقيرا جدا. أعول أسرتى. وأستطيع دعوة المريدين فى بيتى من وقت لآخر. ولدى مساحات معقولة من الأرض أزرعها. إن معظم فلاحى روسيا من عبيد الأرض الذين لا يملكون إلا ما يقدمه لهم السيد. طعام يجعلهم قادرين على مواصلة الكدح من أجله. وكساء بائس. الحمد لله أننى فلاح حر. الحمد لله على نعمة الحرية. يبتسم لى النجم الوحيد اللامع فوق قمة الجبل الثلجى. أبادله الابتسام. أشعر بسعادة من أفاض الله عليه نعمائه. يزغرد فى أذني بكاء طفل.

لا إله إلا الله

لا إله إلا الله

لا إله إلا الله

أنظر إلى الشيخ الكبير نظرة استئذان. يشير إلىّ بيده. أجرى إلى الحجرة الأخرى. أطرق بابها بعجل. تفتح لى إحدى السيدات. أدخل إلى زوجتى. ممدة فوق سريرها. منهوكة القوى. يغمرها عرق غزيز. تضئ وجهها ابتسامة رضا. تشير إلى الغلام بوهن. صوتها الجميل يأتينى ضعيفا لكنه سعيد:

غلام يا ذكاو! غلام!

أحمل الوليد. أتأمله. أتأكد من أنه ملفوف جيدا فى قماش أبيض نظيف. أسرع به إلى الشيخ الكبير. أضعه فى حجره. يردد:

ما شاء الله. ما شاء الله. ما شاء الله.

يلقن الوليد الشهادة فى أذنه اليمنى. يؤذن فى أذنه اليسرى. يدعو له بالصلاح والتقوى.

فليكن على.

يناوله لى. أذهب إلى الحجرة الأخرى. أضع عليا بجوار أمه. بينما يتردد صوت المريدين وهم يهزون أجسادهم ببطء ووقار استعدادا لسياحة أخرى.

لا إله إلا الله

لا إله إلا الله

لا إله إلا الله

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اسمى ذكاو محمد الكمراوي الأواري. أعيش فى قرية "كِمْرِه" على نهر "آوار غايْسو" بداغستان. تشتهر قريتى بالعنب والرطب. لست غنيا أعيش فى بحبوحة كالخانات وملاك الأراضى. ولست فقيرا ذليلا يمد يده للناس يسألهم المعونة. لكننى بحاجة إلى ولد

يعاوننى فى عملى ويوسع به الله رزقى. لكن عليا ولد ضعيفا عليلا. تبكى أمه ليلا ونهارا لمرآه. لا أتوقع أن يعيش طويلا. هزيل جدا. فى عينيه انطفاء الموت لا لمعة الحياة. هل أتمنى له الموت حتى لا يكبر ويصبح عبئا إضافيا فوق أعبائى. أستغفر الله العظيم. فلتكن مشيئته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شامل.

سأغير اسم على إلى شامل التى تعنى السعيد. فربما يصبح سعيدا كاسمه. نحن فى سنة ١٢٢٠هـ (١٨٠٥م) عمره الآن ثمانى سنوات. هو الآن كأقرانه. لم أعد أخشى عليه الموت. اختفت صورة الطفل المريض الشاحب. يجرى أمامى الآن طفل سعيد. قوى البنية. لكنه صموت صمت الجبال. كثير التأمل والتفكير فيما لا أدرى. عندما يأتى المريدون إلى منزلى يجلس بجوار باب الحجرة. ألاحظه وقد تركزت عيناه على الشيخ الكبير لا تطرفان. تلتهم أذناه كل كلمة. تردد شفتاه بلا انقطاع

لا إله إلا الله

لا إله إلا الله

لا إله إلا الله

غدا سأرسله إلى الجبل ليرعى الغنم لى ولجيرانى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طرقات خفيفة على باب حجرتى. كنت وزوجتى قد انتهينا من بعض أذكار المساء. دخل شامل مبتسما.قبل يدينا بخشوع.

نظرت إلى الفتى الذى يخطو الآن إلى أولى مراحل الشباب:

أتريد شيئا يا شامل؟

نعم يا أبى.

قل يا بنى، ماذا تريد؟

أريد أن أنضم للمريدين، وأن أهب نفسى للعلم والجهاد.

ولدى!

قالتها أمه بخوف ولهفة وفخر. نظرت إليها مبتسما. مسحت على شعر ه. ضممته إلىّ، قبلته بين عينيه:

وهل تعرف آخر الطريق يا ولدى؟

نعم يا أبى.

النصر والملك؟

بل الجنة.

بارك الله فيك يا بنى.. بارك الله فيك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كوناك..صديقى راعى الغنم

اسمى كوناك.

سيعرفنى العالم فيما بعد باسم الغازى مولاى.

أنا تقريبا الصديق الوحيد لشامل رغم إننى أكبره بسنوات. عرفته منذ كان وحده مع الغابة والجبل والسماء المفتوحة بلا نهاية.

أقترب منه ببطء. لا يشعر بوجودى. ينظر إلى قمة الجبل المغروسة فى سحابات بيضاء رائقة. يفكر فيما لا أدرى. رعى الغنم جعل الولد الصامت أكثر صمتا.

سلام عليك يا شامل.

سلام عليك يا كوناك.

لا أراك كثيرا هذه الأيام.

العمل.. ها أنت ترى.

يشير إلى الأغنام التى يرعاها والتى يزداد عددها يوما بعد يوم لثقة الجيران فيه. أضحك:

يبدو أنك تفضل صحبة الغنم على صحبتى يا شامل!

لا يا كوناك. لكن..

يصمت كأنه يفكر فيما يريد أن يقوله. يقلبه فى عقله قبل أن يلفظه لسانه:

إنها جبالنا الأبدية يا كوناك. ألسنا داغستان. الأرض الجبلية. ألا يظن البعض أن كل بنى آدم خلقوا من تراب وأبناء داغستان قدوا من حجارة جبالها الشامخة. هذه الجبال الراسخة، وهذه السماء البعيدة القريبة الحانية الغامضة، وهذه الغابات التى

تشعر أن أشجارها كائنات حية تفضى إليك بأسرارها إذا أحسنت الاستماع، وهذه الأغنام التى تشبه فى طباعها طبائع البشر.. هذا هو عالمى يا كوناك. وهو عالم كبير جدا. وهو يكفينى.

أضحك وأضحك. وتجلجل ضحكتى:

بعد قليل ستصبح من الشعراء الشعبيين الأوساكوا يا ولد!

لا يا كوناك. لكن..

إذا كنت ستظل تردد كلمتى لا ولكن فسينقضى العمر قبل أن ينتهى حديثنا. كل ما فى الأمر أنك أوحشتنى فجئت لأراك.

إذن هيا نلعب قليلا.

أخذنا نطارد الأغنام. نتقلب على الأرض. نتسلق الجبل. نتدرب على القتال بالسيف بواسطة فرعى شجرة. حتى هدنا التعب فاستلقينا على الأرض. وأخذنا نحدق فى قمة الجبل والعمامة الكبيرة الزرقاء التى تلتف بها. عمامة السماء.

التقطت أنفاسى. جلست. نظرت إلى الأمام. همست إلى شامل:

هناك أشياء كثيرة فى العالم غير عالمك هذا يا صديقى.

ظل ممددا على الأرض وعيناه مسمرتان على قمة الجبل. ظل صامتا.

العلم. الجهاد. الفقر. الظلم. الروس. المريدون.

انتفض فجأة. جلس أمامى. حدق فى عيني:

وإذن؟

حان الوقت يا شامل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان شامل زميلى فى حلقات الدرس بالمسجد. نتعلم معا التفسير والحديث وقواعد اللغة العربية والشريعة الإسلامية. وكان انفراده بنفسه تحت أقدام جبال داغستان يمنحه فرصة جيدة للتفكير فيما درس واستيعابه. لكن الأهم هو السؤال الذى كان يتردد فى رأسى والذى فوجئت أن شامل الهادئ الصموت لم يخطر السؤال بباله فقط بل وجد له الإجابة.

ظننت أننى آخذ بيده لأدله على الطريق فإذا به يقودنى إلى دروس الشيخ سعيد الهركانى أكبر علماء عصره.

كانت دروس الشيخ سعيد تفتح عيوننا لنرى واقع حياتنا بشكل جديد. الأشياء العادية لم تكن عادية أبدا. الخمر التى تسكر الناس. والميسر الذى يخرب بيوتهم. والفاحشة التى انتشرت بينهم. كل الموبقات التى أصبحت طبيعية بحكم تواجدها وانتشارها. لم تعد كذلك بعد دروس الشيخ سعيد. وما نملكه حقا. ما نملكه ولا نعرف قيمته. حريتنا. أصبحنا نفهمها. وندرك قيمتها. ولدينا الاستعداد للتضحية بحياتنا على ألا نفقدها.

كان شامل يجلس بجوارى فى الصفوف الأولى. عيوننا كعيون كل الجالسين لا تطرف. كلها معلقة بعيني الشيخ سعيد الهركانى المتقدة حماسة وهو يشرح ويخطب ويفجر فى قلوبنا محبة الحرية والغضب من الظلم.

"اعلم أن دار داغستان هو معدن الأخطار ومسكن الأشرار ومنبع المآثم والأكدار لا تقام فيها الحدود، ولا توفى فيها العهود، وأهلها عبيد العارات، ومضيعوا الصلوات، ومرتكبوا الشهوات، ليس لهم همة سوى جمع الحطام من غير تفرقة بين الحلال والحرام، وحكامهم فجار، وولاتهم أشرار وعلماؤهم ذئاب

على أجسادهم ثياب، فإن أردت اللحوق بالأبرار فعليك بالنقلة عن تلك الديار".

نخرج من درس الشيخ ونحن كرات من نار مشتعلة لو اصطدم بنا أحد لأحرقناه. تتفتح عيوننا لترى قبحا لم نكن نراه تحت أقدام الجبال ونحن نرعى الغنم. نرى كم نحن مفتقدون للأمان. الحروب بين قبائلنا بعضها البعض لا تنقطع. الأخوة يقتلون بعضهم البعض. والروس يمنحونهم المال والسلاح ليفنوا جميعا. الخمر مباحة. الجواسيس الذين يعملون لحساب الروس ينتشرون فى كل مكان. الحكام، الخانات، الأمراء، ولاؤهم روسى، وأحكامهم بقوانين الروس، ومصالحهم فوق عقيدتهم، والناس يسيرون خلفهم كالنيام أو كالنعاج.

سأهجر هذه البلاد!

إلى أين يا شامل؟

إلى حيث أجد نفسى ودينى!

كانت دعوة سيدى سعيد الهركانى بالابتعاد عن داغستان قد أثرت بشدة فى شامل فاتخذ قراره بتنفيذها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حمل كل منا جرابا به بعض الطعام والماء والكتب وانطلقنا إلى يراغ العليا ناحية كورة حيث يعيش الشيخ محمد أفندى اليراغى النقشبندى.

كانت الطريقة الصوفية النقشبندية تحمل لواء العلم والجهاد فى كل بلاد القوقاز وليس فى داغستان فقط. وكان العدو الظاهر الذى حددته الطريقة هو الروس. والعدو الخفى هو الجهل

والفحش الذى انتشر بين الناس فأبعدهم عن الدين. وكان الهدف الله والحرية.

انضممنا إلى أتباع الشيخ محمد أفندى اليراغى. نسمع منه العلم. ونحفظ. ونتعلم المجاهدات الروحية. وترتسم فى أرواحنا خطط المستقبل.

وبعد أن أجازنا الشيخ وأصبحنا من المريدين قررنا العودة إلى ديارنا فى كمره.

عندما اقتربنا من الديار. أوقف شامل حصانه فأوقفت حصانى. نظر إلى الجبل الذى طالما رعى الأغنام بجواره. تنفس بعمق كأنه يستعيد سنوات النقاء والطفولة الساذجة. وبدا أنه لا يريد أن يترك هذه البقعة أبدا.

هيا يا شامل قبل أن يدركنا الليل.

لن أذهب يا كوناك.

وقبل أن أستفهم منه عما يقصد كان قد تحرك خطوات فى اتجاه الجبل. تبعته. توقف أمام كهف. أشار إليه:

ها هنا يا كوناك!

وفسر لى قبل أن أسأله:

لن أعود إلى الديار قبل أن أكون مهيأ مكتمل العدة.

لقد زدت الأمر غموضا يا صديقى!

أنا وأنت لا نستحق بعد ما وهبنا أنفسنا له.

ماذا تعنى؟

العلم والجهاد!

ما لهما؟

ينقصنا الكثير لنتعلمه. وهو فى الكتب التى جلبناها معنا. والأهم أنه ينقصنا تدريب أرواحنا لتكون قادرة على الجهاد.

خلال ساعتين كنا قد هيأنا الكهف ليكون صالحا لسكنانا. ونمنا مهدودين من تعب السفر والعمل فى تهيئة الكهف.

قمنا مع الفجر. صلينا. وبدأنا نقرأ. ونحفظ. ويسمع كل منا من الآخر. ويشرح له. وعندما انتهى ما معنا من طعام كنا نلتقط بعض ثمار أشجار الغابة ونأكلها. وكنا نتدرب على فنون القتال.

كان شامل فارسا بالفطرة. عندما يمسك السيف تظنه قطعة من يده. وعندما يركب حصانه تشعر أنهما كتلة واحدة. تذهلنى قوته البدنية الخارقة للعادة. طوله الفارع وجسده المتين. يبارزنى بالسيف. ويجرى لعدة ساعات بلا توقف، فى الغابة. حول الجبل. يتسلق الجبل. يثب بسهولة فوق حفرة اتساعها يزيد عن خمسة وعشرين قدما. كما يثب فوق حبل مشدود يتجاوز ارتفاعه قامة رجل عادى. يسير حافى القدمين عارى الصدر فى كل وقت. إنه ليس مجرد رجل جبلى من داغستان الشهيرة بصلابة رجالها. بل هو حالة متفردة بين هؤلاء الرجال المتفردين!

كان ينمى جسده فى الوقت الذى لا يتوقف فيه عن الذكر والقراءة والصوم ومجاهدة النفس.

أتعبنى معه. لكننى أنا أيضا حصلت الكثير من العلم وقوة النفس والبدن.

أنت رجل غير عادى يا كوناك!

أبتسم له:

أأنت تقول ذلك عنى يا شامل؟ فماذا أقول أنا عنك؟

لا تقل شيئا لكن أجبنى.. هل حان الآن وقت الجهاد؟

أى جهاد؟ ألسنا فى جهاد الآن؟

إننا فقط نستعد له فهل أصبحنا جاهزين لذلك؟

بالتأكيد.

ليت لدى مثل ثقتك.

هل تشك فى نفسك أم فىّ؟

أشك فى العالم الذى سنخرج إليه. العالم الذى سنواجهه ويواجهنا يا كوناك. إنه قاس جدا وظالم وجاهل ويحتاج منا الكثير. فهل نحن قادران على مواجهته؟ هل نحن قادران على ما سيفعله بنا؟ وفى النهاية هل سنغيره أم سيغيرنا؟ هل سننتصر عليه أم سيهزمنا؟ هل..

لديك عشرات الأسئلة الصعبة يا شامل!

وهناك طريقة واحدة لنعرف الإجابة.

أية طريقة؟

المواجهة؟ سنخرج إلى العالم. ونرى.

بعد أيام ودعنا كهفنا الذى آوانا أشهر كثيرة. جمعنا كتبنا. انطلقنا بالحصانين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الغازى مولاى محمد..خطوة للأمام

فى سنة ١٧٩٤ تم قتل الشيخ منصور زعيم المريدين وقائد الجهاد المقدس ضد الروس لمدة تسع سنوات كاملة. قتله الروس الذين يلقبونه بأشورما فى سجن شليسبرج بعد أن قتل الجندى المكلف بحراسته فى محاولة جريئة للهروب.

قبل ذلك التاريخ بعام واحد ولدت أنا. وكان على حركة المريدين الجهادية أن تمر بفترة كمون طويلة لتستعيد عافيتها وتواصل الوقوف فى وجه الروس.

ولدت فى كمره. درست اللغة العربية فى قرناى. تفقهت فى الدين على يد الشيخ سعيد الهركانى. درست جهاد الشيخ منصور جيدا. عرفت أن العثمانيين يعتبروننا تابعين لهم بصفتهم إخوان لنا فى الدين. والروس يعتبرون بلادنا جزءً من إمبراطوريتهم بحكم الموقع الجغرافى. فبلاد القوقاز هى منفذهم إلى المياه الدافئة. لكننا نشعر أننا أحرار. وحريتنا هى أثمن ما نملك. وديننا هو جوهرة تاج حريتنا. لذلك كان لابد أن نعتمد على سواعدنا نحن ولا نلجأ إلى الأتراك الذين وقف معهم الشيخ منصور وخذلوه. إنها معركتنا نحن مع الروس. ونحن قادرون على خوض غمارها.

فى سنة ١٨٢٤ شعرت أننى حققت بين القوقازيين المكانة التى تجعلنى قادرا على إعلان الجهاد المقدس من جديد. فوقفت خطيبا فى الناس لأول مرة بصورة علنية أحثهم على الجهاد ومقاومة الروس الذين يدنسون بلادنا.

كنت أقدر أن يستجيب الناس لى. لكن الاستجابة التى قابلتها كانت فوق توقعى. انتشرت أفكار الجهاد بسرعة بين أهالى الشيشان والداغستان. لقد كانت موجودة منذ القضاء على

حركة الشيخ منصور. كانت تنتظر من ينفخ فى الرماد لتشتعل النار من جديد.

من كل مكان فى القوقاز توافد المجاهدون. الكل يبايعنى على الجهاد المقدس. وأصبح لدينا جيش من ثمانية آلاف مجاهد هو جيش الخلاص. لم يخرج على إجماعنا إلا خان الأوار المقيم بعاصمته خونزاخ. فقررت محاربته أولا وإخضاعه حتى لا يبقى فى صفوفنا من عملاء الروس أحد.

خرجت إلى خان الأوار بنفسى. كان معى شامل وحمزت اللذين أعتمد عليهما فى معظم شئونى. لكن الخان كان قد أعد جيشه واستعد لنا استعدادا جيدا فلم نستطع القضاء عليه رغم شراسة المعركة التى دارت بيننا.

جمعت شتات جيشى. عدت إلى كمره حزينا معلنا أن سبب فشلنا هو ضعف الإيمان الذين جعلنا نخشى الموت فى سبيل الله ونحرص على حياتنا الذليلة هذه.

هل أعلنت الجهاد قبل أن يستعد الناس استعدادا حقيقيا؟

إن الحاج مراد؛ أحد رجال الخان، جمع الأسرى من جيش الخلاص وأرسلهم إلى الروس دليل إخلاصه لهم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخبرتنى عيونى أن جيشا روسيا جرارا يتجه إلى مقر المريدين فى كمره. جمعت مشاوري وفيهم شامل وحمزت. احتد الخلاف بين الجميع.

لنخلى المدينة من المريدين فإذا جاء الروس ولم يجدوا أحدا عادوا بخفى حنين.

هذا رأى جبان. هل نهرب عند أول مواجهة؟

إنه جيش لا أول له ولا آخر فما معنى أن نلقى بأيدينا إلى التهلكة؟

إننا نجاهد من أجل الشهادة فماذا نخشى؟

احتد الخلاف حتى خشيت الفرقة. نظرت إلى شامل ساعدى الأيمن الصامت. كان ينظر إليهم وكأنه يزن كل كلمة تقال. رفعت يدى مشيرا للجميع بالصمت. بعد لحظات من صمت مشوب بتوقعات عديدة وجهت حديثى إلى شامل:

ماذا ترى يا شامل؟ نواجه فى المدينة أم نغادرها؟

نواجه فى الغابة؟

نظر إليه الجميع وكل منهم يحاول أن يفهم ما يرمى إليه. وقف شامل وشرح خطته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان جيش المريدين يهرب أمام الجيش الروسى الذى تملك الحماس جنوده فأخذوا يطاردوننا فى غابات كمره. وعندما أصبح معظم الجيش الروسى فى الغابات هجمنا. من فوق الأشجار ومن خلفها. كان الجنود الروس مذهولين من وقع المفاجأة. لم يستطيعوا الحركة بأسلحتهم الثقيلة ومدافعهم. فحصدناهم حصدا. وانطلقنا بعد ذلك نحقق انتصاراتنا على الروس وعملائهم فى باراثول وقلعة ونسبانيا وقزليار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يبدو أن حركة جيشنا أقلقت الروس بشدة. وأقلقت عملاءهم بشكل أكبر. وزاد خوف العملاء أكثر عندما نشرت رسالتى التى

عنوانها "إقامة البرهان على ارتداد أمراء داغستان" الموالين للروس. هؤلاء الأمراء الذين باعوا الدين بالدنيا وتخلوا عن الشريعة.

ففى خريف سنة ١٨٣٢ جرد الروس جيشا لم نواجه مثله من قبل بقيادة البارون فليامينوف. كان غرضهم تدمير كمره والقضاء على جيش المريدين.

شمر الجميع عن سواعد الجد. المريدون وأهل المدينة. رجال ونساء وأطفال. عملنا على تحصين المدينة حتى لا ندع للروس فرصة لاقتحامها.

هاجمونا بقوة وضراوة. أبدى الرجال بسالة نادرة. وردوا الجيش الروسى على أعقابه فلم يستطع دخول المدينة. لكن الثمن كان فادحا. عشرات القتلى والجرحى. وحصار شديد الإحكام حول المدينة.

كان شامل يقود فصيلة من الرجال فى بعض الليالى. يخرج من المدينة متسللا. يعمل فى الروس قتلا ثم يعود برجاله سريعا. وفى ليالى أخرى يقود حمزت الرجال فى مثل تلك المهمات. كبدوا الروس الكثير من القتلى. بل غنمنا بعض السلاح. وبعض الأسرى.

لكن كل هذا لم يفت فى عضد الجيش الروسى. يبدو أنهم صمموا على تحقيق هدفهم مهما تكن الخسائر. أخذوا يضربون المدينة بمدافعهم. ويحرقون البيوت بمن فيها. ثم قاموا بهجوم شامل. كانت مجزرة حقيقة. صمد بعض الرجال. وقتلوا. ونجا آخرون بأنفسهم. ودخل الروس المدينة. وأخذوا يخربونها. ويحرقونها.

كنت مع شامل وآخرين نحاول الدفاع عن آخر بيوت المريدين. أحاط بنا الروس وأخذوا يدكون البيت. ونحن نرد عليهم ببنادقنا حتى نفذت ذخيرتنا. فتوقفنا. وساد الصمت. شعر الروس أنهم قضوا علينا فبدءوا يقتربون. عندئذ خرجنا إليهم بسيوفنا. فحصدنا رؤوس من استطعنا منهم. وهرب الباقون. وعدنا نتحصن بعيدا عنهم. فانهالوا علينا بالرصاص مرة أخرى. وبدأ الرجال يتساقطون من حولى. لم يبق إلا أنا وشامل وثلاثة مريدين آخرين. أصابتنى رصاصة فى صدرى. نظر شامل إلىّ. حاول إخراج الرصاصة. أشرت إليه أن لا فائدة. نظر من فرجة فى شباك. رأى الروس يتقدمون مرة أخرى. طلبت منه أن يتركنى وينجو بنفسه.

همس فى أذنى:

مولاى! غفوت ساعة فى الليلة الماضية فرأيت كل ما يحدث لنا الآن! لك الجنة يا مولاى!

لا تحدث إخوانك بهذا حتى لا يفت فى عضدهم.

توجه إلى المريدين المحبوسين معنا. قال لهم بصوت هادئ يملؤه اليقين:

إن الحور العين يحضرن الشهداء قبل فراق أرواحهم. فلعلهن فى السماء ينتظرننا. اثبتوا. واطلبوا الشهادة.

شعر بالخوف فى ملامح الرجال. والتخاذل فى عيونهم. طأطئوا رؤؤسهم. صرخ فيهم:

الموت آت لا محالة. يمكن أن يلقى الروس علينا نارا فيحترق البيت بنا. هيا! فلنثب عليهم وثبة رجل واحد لعل الله يجعل لنا مخرجا.

خرج شامل فجأة بطوله الفارع رافعا سيفه اللامع. صارخا بصوت جهورى:

لا إله إلا الله

فوجئ الروس به وخلفه المريدون الثلاثة. تراجعوا للخلف. أطار رأس واحد أو اثنين. وقفز مبتعدا فى اتجاه الغابة. وعندما انتبه الروس من ذهولهم كان قد اختفى وخلفه اثنان من المريدين. وسقط الثالث برصاصات فى ظهره. شعرت بالراحة لهروب شامل فهو الوحيد القادر على إكمال المسير بالمريدين فى طريق الجهاد.

سقطت على الأرض حامدا الله على الشهادة مرددا:

أشهد أن لا إله إلا الله

وأشهد أن محمدًا رسول الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حمزت بك جانقا..الإمام الثانى

كان يجب أن يكون شامل هو الإمام الثانى للمريدين بعد استشهاد إمامنا الأول الغازى مولاى محمد. رغم أننى أكبر من شامل. فقد ولدت سنة ١٧٨٩. لكن شامل كان الساعد الأيمن للغازى مولاى محمد. كم أثبت من ضروب الشجاعة والجرأة فى المعارك. وكم أظهر من قدرات على رسم الخطط الحربية والمناورات مع العدو. والأهم قدرته على سياسة الناس والتعامل معهم. كنت أحيانا أضحك وأقول له:

يا أخى فى العهد! يبدو أن رعى الغنم قد أفادك كثيرا!

يبتسم ابتسامته الهادئة الغامضة:

إنها مهنة الأنبياء يا أخى!

الناس أم الغنم؟!

يضرب كتفى ضربة خفيفة بقبضته. تتسع ابتسامته. ويذهب بعينيه بعيدا كالعادة مقلبا فى رأسه ما سمع وما قال.

بعد هزيمتنا الكبيرة فى كمره. وسقوط مئات الشهداء مع الغازى مولاى محمد. بالإضافة إلى آلاف الجرحى. وتشتت الباقين بين المدن والقرى خوفا من مطاردات الروس وعملائهم من الخانات والأمراء والخونة. اجتمع شيوخ المريدين وبايعونى خليفة للغازى مولاى محمد. حاولت الرفض فى البداية:

لست أهلا لهذه المهمة! لست الغازى مولاى محمد ولا حتى شامل!

كان شامل مع مولاى محمد. ولابد أنه قتل.

لكننا لم نعثر على جثته كما عثرنا على جثة مولاى محمد. لا رأسه. ولا جسده.

يمكن أن يكون هاربا فى مكان ما.

وجدنا جثة حصانه.

وبعض مزق من ملابسه.

يمكن أن يكون بين يدي الروس الآن حيا

أو ميتا.

فلنبحث عنه أولا. لننتظر قليلا. قد يظهر.

ماذا تخشى من شامل يا حمزات؟

أنا لا أخشى من شامل. لكننى أراه الأجدر بقيادتكم. وأنتم فى صميم قلوبكم توافقوننى الرأى.

الموقف الآن أخطر مما تظن.

ماذا تعنون؟

إذا لم نجتمع حول قائد. وبسرعة. فسوف يتشتت شمل المريدين.

أليس هذا ما حدث بعد القضاء على حركة الشيخ منصور؟

ألم ننتظر عشرات السنين حتى جاء الغازى مولاى محمد؟

هل تريدنا أن ننتظر عشرات السنين الأخرى؟

مد يدك لنبايعك إماما لنا!

مد يدك..

مد يدك..

مد يدك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت جراح شامل خطيرة.

لولا بنيته الجسدية المتينة وتدريبه الدائم لجسده على الزهد والتقشف وتحمل المشاق لكانت جراحه قضت عليه.

لكنه استطاع الوصول إلى بلدة انتسكول القريبة. فأصبح فى مأمن من الروس. واختفى عن الأنظار مع بعض أتباعه يداوى جراحه.

دخلت عليه. كان معه اثنان من الأتباع. أشار إليهما بعينيه فخرجا وأغلقا الباب خلفهما. كانت الحجرة شبه معتمة. لكن شعاع شمس الظهيرة يتسلل عبر خصاص النافذة فينير بعض وجهه المتعب. ويرسم ظلالنا على الحوائط. كان شامل فى حالة إنهاك تام. يتنفس بصعوبة. يتكلم بصوت شديد الانخفاض. لم يكن قد تعافى تماما من جراحه. لكن عينيه كانتا كما هما. يلمع فيهما البريق كعيني صقر فوق قمة ثلجية.

السلام عليك يا أخى فى العهد!

وعليك السلام يا حمزت.

ران على الحجرة صمت طال حتى أقلقنى. كانت عيناي تلتقيان بعينيه برهة ثم تبتعدان. أشغل نفسى بتأمل الحجرة الضيقة المعتمة. لا شيء فيها سوى السرير الذى يتمدد عليه شامل. وصندوق صغير به ملابسه. بجوار السرير سيفه الذى لا أعرف ماذا يمكن أن يفعل به وهو فى هذه الحالة. لكنه فى متناول يمينه كما كان دائما.

أشار لى بالجلوس. جلست على حافة السرير. نظر إلىّ كأنه يحثنى على الكلام. لم أجد ما أقوله. كنت أشعر بالحرج. تمنيت أن يبدأ هو. لكنه كان يقيم ما بداخلى بعينيه. شعرت أنه وصل إلى يقين ما. ولم يبق إلا أن أتحدث ليخبرنى بما فى قلبه.

وضعت يدى على صدرى. نظرت فى عينيه مباشرة. كنت أعلم أننى صادق فلم يختلج صوتى ولم يطرف لى جفن:

يا أخى فى العهد! افتقدك القوم وظنوا أنك نلت الشهادة. خشوا على المريدين من التشتت وعلى الدعوة من الضياع. فاجتمعت كلمتهم على اختيار خليفة للغازى مولاى محمد.

أنت لها يا حمزت!

يا أخى!

وسأكون لك كما كنت للغازى مولاى محمد وأكثر.

يا أخى! يا أخى!

ولم أتمالك نفسى. بكت عيناي وأنا أحتضنه بشدة. ولم أنتبه إلى أننى آلمته إلا عندما صرخ صرخة واهنة. فرفعت صدرى عن صدره. ومسحت دموعى وأنا أبادله الابتسام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنتمى إلى شعب الأوار. لذلك لم يكن صعبا أن أحقق ما لم يحققه الغازى مولاى محمد مع هذا الشعب. أرسلت بعض رسلى يدعونه. ثم دعوته بنفسى. فاقتنع الكثيرون بدعوتنا وانضموا إلى حركة المريدين.

جمع شامل أشلاء جيش الخلاص. واتجهنا إلى خونزاخ عاصمة الأوار.

كان يحكم الأوار ثلاثة أشقاء هم أبو النزال خان وأمة خان وبولاد خان. وكان مشاورهم الأول هو الحاج مراد.

فى البداية أرسلنا إليهم من يطلب منهم الانضمام إلى المريدين.

أوفد الخانات الثلاثة الحاج مراد إلى الروس ليستعين بهم علينا.

فأسرعنا قبل أن تحقق الخيانة غرضها. قتلنا الخانات الثلاثة. وشتتنا شمل جيشهم. قتل شامل بنفسه أبو النزال الأخ الأكبر. لكن الحاج مراد وأخاه عثمان استطاعا الهرب ولم يلحق بهما أحد من المريدين. اختفيا تماما.

كانت هذه هى الخطوة الأولى لتقوية حركة المريدين حتى يمكنهم الوقوف فى وجه الروس دون الخوف من العملاء الذين يمكن أن يضربونا فى الظهر.

لكن الأيام لم تمهلنى للمضى قدما فى تحقيق ما أصبو إليه.

كان الحاج مراد وأخوه عثمان قد عادا وطلبا الصفح وانضما إلينا.

توجهت إلى المسجد ومعى عدد من المريدين فيهم شامل ومريدى المقرب آصلدار والحاج مراد وعثمان. وفجأة حدث داخل المسجد ما لم يكن متوقعا. انقض الحاج مراد بخنجره على آصلدار فقتله. وأطلق عثمان علىّ النار. فامتشقت خنجرى وقفزت رغم الرصاص الذى فى صدرى محاولا قتل عثمان. لكن الحاج مراد ضربنى على رأسى ضربة أفقدتنى الوعى. قبل أن أغيب تماما كنت أشاهد خيالات. شامل يقتل عثمان. المريدون يطاردون الحاج مراد الذى اختفى كشبح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحاج مراد..عداء منذ البداية

لم أحب المريدين يوما. ولم أحب شامل قط.

تربيت فى بيت خانات الأوار. عشت معهم كأخ لهم. عملت فى ظلهم بالتجارة واغتنيت. ثم جاء المريدون يقضون على كل ذلك. وجاء شامل ليمثل لى أسوأ ما فى المريدين؛ شعورهم الحاسم بأنهم مختارون من الله. من ليس معهم فهو ضد الله. ومن كان ضدهم فهو يستحق الموت. هم مجموعة من الدهماء الذين تحركهم حماسة خطابية بلهاء فيقتلون من يخالفونهم. ويلقون بأيديهم إلى التهلكة.

يحيرنى هؤلاء القوم الذين يحتكرون الإيمان!

إننى مثلهم مسلم. سنى. أعرف ربى ودينى. أؤدى الفروض كلها. فلماذا يعتبرون أنفسهم أفضل منى لمجرد أن خياراتى الدنيوية والسياسية مختلفة عنهم؟!

شعوب القوقاز مجرد قبائل متفرقة. وعدد كبير من رؤساء العشائر والخانات والأمراء. مجموعات من الفقراء الجهلاء الضعفاء المتقاتلين. الأتراك لا يمكن الاعتماد عليهم أبدا. يمكن أن يستخدمونا لمصالحهم ثم يلقوننا عند أول فرصة. لكن المريدون لا يفهمون ذلك. يظنون أنهم يمكن أن يقفوا فى وجه إمبراطورية الروس الفتية وجيشها الحديث المدرب. ويتعاونون مع الأتراك دون أن يستفيدوا من عبر الماضى.

كان أول لقاء لى بشامل أثناء المفاوضات بين حمزت وأمة خان. كان حمزت يحاول استدراج الخان الصغير للموافقة على احتلال المريدين لخونزاخ. عندما حاولت التدخل نهرنى شامل طالبا منى الصمت لأن الحديث لم يوجه إلىّ. صمتُ. لكننى تأملت

ذلك الشاب الفارع. ذى البنية الصخرية والوجه الجامد. لم أرتح لملامحه الجامدة وعينيه الذئبيتين ولحيته الحمراء.

كان شامل اللاموری (الجبلی) يكرهنى لأننى كنت السبب فى هزيمته هو وأميره الغازى مولاى محمد وردهما عن خونزاخ. ولأننى أرسلت بعض الأسرى من المريدين إلى الروس تأكيدا لولاء الخانات لهم.

كيف استطاع حمزت الثعلب أن يقنع الخان الكبير أبا النزال أن يأتى هو أيضا إلى معسكره للتفاوض؟. حاولت كثيرا أن أثنى أبا النزال. حذرته من غدر حمزت. لكنه أبى. ودخل مع أخيه أمة خان وحمزت وشامل وبعض المريدين إلى خيمة حمزت. وبعد قليل كان أمة خان مطروح أرضا. وكان أبو النزال يحاول الدفاع عن نفسه فقتل أخا حمزت وبعض المريدين. لكنه قتل هو أيضا فى النهاية. وفررت أنا منهم بأعجوبة.

فرض المريدون سيطرتهم. واحتل حمزت قصر الخانات. وقتل أمهم. فأرسلت إليه أطلب الأمان لى ولأخى عثمان ولبقية أهلى وأتباعى. فأعلن العفو عنى.

كان حمزت وشامل لا يثقان فىّ. وكانا محقين. عيونهما تترصدانى ليلا ونهارا. أشعر بهم. لكننى أتجاهلهم. فقد كانت عيونى أيضا تترصدهما. كان حمزت هو هدفى الأول. ليتنى جعلت شامل هو الهدف.

كنا؛ أنا وأخى عثمان، ندخل مع حمزت وشامل وبعض المريدين إلى مسجد خونزاخ. كان كل منا يرتدى بردة سابغة يخفى تحتها سلاحه. شك آصلدار فى عثمان عندما رآه يتحسس تحت ملابسه، فوق بطنه، من آن لآخر. صرخ فينا آصلدار:

ليخلع كل منكما بردته!

أخرجنا سلاحنا بسرعة. هجمنا. أطحت برأس آصلدار بخنجرى. أطلق عثمان الرصاص على حمزت. لم يمت حمزت فورا. حاول الهجوم بخنجره على عثمان. فعاجلته بضربة على رأسه قضت عليه. وفى اللحظة التى كنت أهرب فيها من المريدين الذين حاولوا قتلى رأيت شامل يطلق النار على أخى عثمان فيرديه قتيلا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الناس قد ضاقوا بحكم المريدين المتزمت. فما إن سمعوا بمقتل حمزت حتى ثاروا. طردوا المريدين من المدينة وبايعونى حاكما. وزاد رسوخى فى منصبى عندما حصلت على رتبة ملازم أول من القائد الروسى روزن وطلب منى الجنرال كلوجناو أن أحكم أفاريا.

لم يطق شامل صبرا. كان يتحرق إلى الانتقام. لم شتات جيش المريدين بسرعة. بث فيهم حماسة خطابية تافهة. قادهم للانتقام لمقتل صديقه حمزات تحت دعوى الجهاد.

كان شعب الأوار بزعامتى شوكة قوية فى حلق المريدين الذين حاولوا دخول خونزاخ مرة أخرى. لكننى تصديت لهم بقوة. هزمتهم وطاردت فلولهم بعيدا عن عاصمتى.

ازدادت كراهية شامل لى. كانت أولى معاركه كإمام للمريدين. وكانت هزيمته فيها منكرة.

فحاول أن يحقق أى نصر يسترد به هيبته وهيبة رجاله.

هاجم قوات القائد كلوجناو. تصدى له كلوجناو. وكادت البقية الباقية من جيش المريدين تفنى بفضل شامل!

انسحب شامل بجنوده إلى الجبال يلعق دماءه كذئب جريـح.
واستتب الأمر لى نهائيا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأمير عبد القادر..حرب بلا أمل

انتهيت من صلاتى. توجهت إلى الحجر الأسعد.ألقيت إليه بذنوبى وشجونى لعلى أرتاح. تأملت آلاف الرجال والنساء الذين يطوفون حول الكعبة. تلك الوجوه المنيرة والقلوب الخاشعة. الركع. السجود. كم هم قريبون من ربهم الآن. فلماذا يبعدون عنه بعد أن يعودوا إلى أوطانهم؟ لماذا أصبح المسلمون آخر أمم الأرض؟ غثاء السيل نحن الآن. وها هى الأمم تتداعى علينا تداعى الأكلة إلى قصعتها.

أفقت من تأملاتى. رأيته أمامى. فتى فارع الطول. متألق العينين. حائر الملامح. فى حوالى الثلاثين من عمره.

عرفت أنك هنا فكان من المستحيل ألا أراك!

أهلا بك. اجلس. من أنت؟

عرفنى شامل الداغستانى بنفسه.

حدثنى عن محنة القوقاز بين العثمانيين والفرس والروس. حدثته عن محنتى بين العثمانيين والفرنسيين.

محنتى الكبرى كانت الجزائريين أنفسهم! محنتك الكبرى هى أهلك!

ماذا تعنى؟

أترى العالم؟ هؤلاء الذين يدعوهم معظمنا كفرة؟ أين هم الآن وأين نحن؟ ألا ترانا نعيش فى سحابات الأوهام. المجد القديم الذى حققه غيرنا. ما الذى حققناه نحن؟. نحن نفخر بأجدادنا. فعلوا ما يسمح لنا بذلك. فهل فعلنا ما يجعلنا جديرين بهم؟ أجدادنا بلا أحفاد. أعداؤنا أقرب إلى الله منا.

كيف ذلك؟

ألم يأمر الله بالسعى فى الأرض؟ ألم يأمر بالعلم؟ ألم يأمر بأن نكون أقوياء على قلب رجل واحد؟

بلى!

أهذا حالنا الآن؟

لا!

إنهم يسيطرون على مادة الكون. وتزداد سيطرتهم عليها يوما بعد يوما. فيسيطرون بالتالى على الأمم الأخرى. بضعة آلاف منهم تحكم ملايين المسلمين وغير المسلمين بقوة العلم والحيلة.

هذا حق!

أما نحن فنقيم مقامات للأولياء والمدعين. المدعون أكثر. نطاول السماء زهوا بقصائد من شعر الفخر الركيك. كلمات جوفاء بلا رصيد حقيقى من واقع يؤيدها. نستجدى الآن قوت يومنا فأين من كان يرسل إلى ملك الروم يهدده بجيش أوله فى القسطنطينية وآخره فى بغداد؟ وأين من كان يداعب السحابة لأن خراجها سيأتيه حتما؟!

شعوب القوقاز. عشرات الشعوب والقبائل. الأديغة والأبزاخ والبزادوغ والشايسوغ والوبيخ والحاتقواي والناتوخواي والتشامقوي والويتاخ (الشيشان والأنغوش) والأوستين بفرعيها الأبرون والديقور، والداغستان بفروعها: الادار، والاتدلال، واللاك، والابخاز والأوار.. عشرات اللغات واللهجات. اللغات الشركسية والأديغية والشيشانية والأبخازية والوبخية والأوارية..

ما زال فينا وثنيون بث فيهم الغازى مولاى محمد دعاته واستجاب منهم كثيرون. الداغستان بلاد متفردة. بلاد تجتمع فيها كل صفات الطبيعة. صحارى حمصتها الشمس الكاوية. حقول الثلج والجليد الدائم. وهاد تحت مستوى البحر. وجبال تطاول سحاب السماء. لكل قبيلة أمير. ولكل حى خان. ولكل رجل هدف. الثارات بينهم لا تنتهى. وأنهار الدماء لا تتوقف عن الجريان.

هذا هو تحديك الأكبر!

لماذا نحقق انتصارات على الروس لا تفت فى عضدهم ثم يهزموننا هزائم قاتلة؟

لأنهم دولة ولأنكم عصابة؟ لأنهم يخططون لمئات السنين القادمة وأنتم تنظرون تحت أقدامكم؟ لأنهم يعملون لهدف واحد هو إمبراطوريتهم وأنتم تعملون لأهداف عديدة متضاربة.

وكيف نكون دولة ونحن كما وصفت لك؟

ألم يجمعكم الإسلام؟ فلتجتمعوا عليه. لقد أنشأت دولتى الزمالة فوق ظهور الجمال. كنت أنقلها معى حيثما ذهبت. وكان كل فرد فيها يعرف مكانه وقت السلم ووقت الجهاد.

وما الذى كسرك أمام الفرنسيين؟

الجهل والخيانة والعلم والقوة. جهل من أحارب من أجلهم وخيانتهم لى. وما يمتلكه عدوى من علم وقوة.

أكنت تعلم أنهم سينتصرون؟

كنت على يقين من ذلك!

فكيف واصلت؟

تعلم مقدورك لكنك لا تستطيع تغييره. تذهب بنفسك إلى حتفك لأنك لا تستطيع أن تتخلى عن واجبك. أتعرف موسى بن أبى غسان؟

"الله أكبر.. الله أكبر"

قمنا إلى صلاة العصر. والفتى الداغستانى يلازمنى كظلى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يُفتح أحد أبواب غرناطة المحاصرة بجيوش فرديناند الخامس. موسى بن غسان ينطلق بكتيبة صغيرة العدد من الفرسان. خيولهم كأن لها أجنحة. يطيرون بسيوفهم البراقة فتتطاير الرؤوس المذهولة. من كان يتوقع أن تدافع غرناطة عن نفسها هذا الدفاع المجيد بعد أن أماتها الحصار وقرر ملكها وكبارها تسليمها؟ هل كان يظن موسى بن غسان ومن معه أنهم سيحققون نصرا ما؟ سيفكون الحصار المضروب حول المدينة الشهيدة؟

مستحيل!

إنما كانت الروح تريد أن تثبت أنها لم تمت بعد. كانت الشهادة هى المطلب لأن النصر لا أمل فيه.

أفهم الآن ما تقصد!

إننا الآن كالأندلس وقتها يا داغستانى! نفس التفكك والتنابذ والوهن والضعف. وعدونا يضرب بعضنا ببعض ويستقوى بنا علينا. زد على ذلك الفقر والجهل الذى نحن الآن فيه.

فهى حرب بلا أمل إذا.

بل جهاد يحدوه أمل لا نهائى يا داغستانى. أمل فى ألا تموت روح أمتنا. أن تبقى الجذوة مشتعلة وإن تحت رماد كثيف.

نحن شعوب تقدس الحرية. ونحن من صخر الجبال خلقنا. لم نتقبل الإسلام بسهولة. لكن عندما أسلمنا كنا خير المدافعين عنه. ولن نرضى بالحياة دون إسلامنا أو حريتنا. الله والحرية هى الأنفاس التى نعيش بها.

هذا جميل يا داغستانى. جميل. لكن الكلام شيء والعمل شيء آخر. أمامك عمل كثير. والأمل فى أن تجنى ثمارا حلوة بعيد. ستجنى ثمار العلقم من عدوك. وستقبض على شوك صديقك فيدمى روحك. فكن مستعدا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الداغستانى صقر وحيد حائر فوق قمة جبلية مجهولة. أحب هذا الفتى. يقينه وحيرته وبهاء وجهه وألق عينيه. أخرج معه وبعض أتباعى إلى صحراء مكة. يشرح لى طبيعة بلاده. الجبال الشاهقة التى تعلوها ثلوج الشتاء كرجال ذوى عمائم بيضاء. الغابات الكثيفة التى يمكن أن تكون صديقا للمحارب ويمكن أن يكون فيها حتفه. الصحارى المهلكة التى تحرقك شمسها نهارا، ويجمدك بردها ليلا. أستعيد معه معاركى ضد الفرنسيين وضد المتمردين والخونة. يلتقط بمهارة كل التفاصيل. يسأل كثيرا. كأنه يريد أن يعيش حياتى كلها مرة أخرى. مشابهة ظروفنا تجعلنا نتحد. أمنحه خبرتى فى حرب العصابات. الأسلوب الذى يمكن أن يقف به أمثالنا أمام الجيوش الحديثة للأمم القاهرة. وأمنحه محبتى. ودعائى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

زَغَلَو الخَرَشى..البيعة

دقات متتابعة على باب بيتى. أغلق صحيح مسلم الذى أراجع فيه بعض الأحاديث. يفتح الخادم الباب. يخبرنى أن أحد المريدين يريدنى فى أمر هام. يدخل المريد مبهور الأنفاس:

أدركنا يا سيدى!

أقف مأخوذا من منظره. أطلب منه الجلوس لالتقاط أنفاسه. يرفض طالبا منى الذهاب معه فورا إلى مسجد قرية خَرَكَة قبل اشتداد الخصام واندلاع نار الفتنة.

أضع عمامتى فوق رأسى. وأخرج معه حيث أجد الخادم قد جهز حمارى. أمتطى الحمار. نتوجه إلى المسجد.

أثناء الطريق يحكى لى المريد عن الخلاف الكبير الذى نشب بين المجتمعين هناك حول شامل بن ذكاو.

لقد أوصى حمزت له بالخلافة عند اغتياله. لكن شامل أراد أن يكون حكمه شرعيا ببيعة تامة من كل الأهالى. فأخذ يدور مع أتباعه على القرى والمساجد لأخذ البيعة. وفى مسجد خَرَكَة اشتد الخلاف بين الناس. بعضهم يبايع شامل بالخلافة والإمامة. والبعض يرفض البيعة ويرى بعدم جوازها. حتى خشى شامل أن يصل الخلاف إلى خصام يضر ما يرمى إليه من لم شمل المتفرقين. فقال لهم:

أيها السادة العلماء! أرى أن الخلاف وصل إلى ما لا يمكن الاتفاق بعده. فما رأيكم أن نستعين برأى العالم المجتهد الفقيه زَغَلَو الخَرَشى ونفوض إليه الأمر؟

موافقون!

دخلت المسجد. سلمت على الجميع. كان هناك عدد كبير من العلماء والكبراء والمريدين وسواد الناس. كان التحفز يبدو على الوجوه. والخلاف يمكن أن ينشب لأى كلمة تقال فى غير محلها. طلبت من كل فريق أن يفوض رجلا يشرح لى وجهة نظره. استمعت بصبر وروية. فكرت فى كل كلمة تقال. ثم وقفت متحدثا:

أيها العلماء الأماجد! لقد بعدتم عن أصل المسألة فاختلفتم. فقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنا ثلاثة أن نؤمر أحدنا. ونحن بحاجة إلى أمير يتقى الله فينا. ويجمع كلمتنا المتفرقة. ويحيى ما مات من الدين. ويجاهد الكفار حتى يعلى كلمة الحق. وإنى والله لأرى هذا الرجل أمامى الآن.

ثم أخذت يد شامل. وبايعته بصفتى وكيلا عن كل الحضور الذين تركوا لى الفصل فى الخلاف. فبايعه الجميع خلفى.

لكننى شعرت أن واجبى لم ينته عند هذا الحد. فوقفت صامتا حتى انتهى الناس من بيعتهم. وأمسكت بيد شامل وأوقفته بجانبى. ثم قلت له:

"يا ولدى شامل! إنى لا أخاف الخطأ فى هذه المبايعة. بل أخوف ما أخاف عاقبة أمرك إذا قوى عضدك بجنود تضيق لها الفضاء. وجرت على مقتضاك خيول القدر والقضاء. وصار فى يدك العقد والحل. والتولية والعزل. وحسِبت أنه قد صفا لك الدهر. ولتعلم أن الصفاء يعقبه الكدر. يا ولدى! إنى أعلم وقائع السلف الصالحين والطالحين. كأنى نشأت فيهم وسعيت معهم. وليس لتفصيلاتها زمان. ولكن أذكر منها ما يزجرك عن الفتن. لئلا تذيق عباد الله المحن. ولا تفوض أمورهم إلى غيرك. ولا تسلم

الأمر إلى يد واحد من رعيتك. ولا تخوض فى حمى الله تعالى إلا بإذنه من سفك دم مسلم بلا حكومة من العلماء به. ولاتؤثر المال على الرجال. فالله تعالى سيبعثنا ويحاسبنا على أعمالنا”.

وأخذت أبسط له وللحضور كيف قامت الدول بالعدل والجهاد. وكيف سقطت بالظلم والفتن. الأمويون والعباسيون والمماليك والفاطميون والأيوبيون وغيرهم. ثم رفعت يدي بحذاء صدرى. ورفعت عيني إلى السماء. ورفعت صوتى داعيا:

“اللهم ألهمه العدل والرفق بالعباد. وامحق بسيفه الظلم والعناد. وأطله أميرا على المؤمنين حتى يلحق الأحفاد بالأولاد. اللهم وحد به الكلمة. واعل به الحق. وانصره على نفسه وعلى عدوك وعدوه يا رب العالمين”.

وأطلت فى الدعاء حتى غبت عن العالم من حولى. وغبت حتى عن نفسى. وعندما انتهيت من دعائى ومسحت بيدي على صدرى؛ نظرت إلى شامل فوجدت الدموع على خديه تجرى جريانا. وسمعت نشيجه يعلو. فبكى كل من كان بالمسجد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحاج مراد..من عدوٍ إلى عدو

على مائدة القمار كان يجلس أحمد خان والجنرال كلوجناو وزوجته وبعض ضباطه. كان أحمد خان يعرف كيف يخسر لكل اللاعبين. وكم يخسر لكل لاعب. النصيب الأكبر ذهب لزوجة الجنرال. وفى نهاية اللعبة كان الجميع قد اقتنعوا بأننى انضممت لشامل وخنت عهدى مع الروس. والدليل الدامغ الذى به أقنعهم أحمد خان هو ارتدائى للعمامة الخضراء الكبيرة؛ رمز المريدين.

طلب الجنرال لقائى فى معسكره. لم أترك خونزاخ وأذهب إليه. فأرسل إلىّ من يدعونى مرة أخرى. فوعدت بالذهاب لكننى لم أذهب. فأرسل لى رسالة تجمع بين المسالمة والتهديد. لكننى كنت أعلم أنه سيغدر بى ويسلمنى لعدوى اللدود أحمد خان. فحصنت مدينتى واستعددت لما هو آت.

ولم يطل بى الانتظار. أحاطت بى جيوش أحمد خان والجنرال. قاومت مع رجالى ببسالة. لكنهم فى النهاية استطاعوا أسرى. واقتادونى إلى معسكر الجنرال.

أيقنت أن نهايتى قد دنت. كانت الفصيلة التى تحرسنى من رجال أحمد خان وبعض الجنود الروس. وكان أحد الجنود الروس مربوطا معى بحبل واحد فوق نفس الحصان حتى لا أستطيع الهرب.

كنت أفكر أن محاولة الهرب جنون. يمكن أن أموت أثناء المحاولة. الموت محتمل هنا لكنه أكيد إذا لم أهرب.

فى الطريق بين الجبال. ونحن على مرتفع من الأرض. نغزت الحصان بقدمى فى اتجاه السقوط. سقط الجندى المربوط معى

ميتا إذ اصطدم رأسه بصخرة فلقته نصفين. وسقط الحصان فوق قدمى. سحبتها من تحته بصعوبة وألم. ألم فوق طاقة البشر. وأخذت أجرى مبتعدا عن مرمى نيران الجنود الطائشة. دخلت دغلا أخفانى عنهم. أصبت بعرج لازمنى إلى الأبد. لكنه لم يكن أبدا عائقا لى لأكون فارس القفقاس الأول. وما العرج بالنسبة لفارس؟ ألم يكن تيمور العظيم أعرجا؟!

كان شامل قد أرسل لى أكثر من رسول بالعفو عنى ونسيان ما مضى والعمل معا فى الغزوات والجهاد. وعندما رفضت عروضه أرسل يهددنى بحرب تقضى علىّ فلم أبال.

لكن الآن لم يبق أمامى إلا الانضمام لشامل.

من عدو أهرب إلى عدو!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إلى مدينة تسلماس مسقط رأسى عدت. وهناك بايعنى الآفاريون على أن أحكمهم من جديد.

كان كل ما يشغلنى هو الانتقام من أحمد خان. لن يساعدنى الروس على ذلك فهو رجلهم الآن لا أنا. وإذن فعلىّ الاعتماد على نفسى فى الانتقام ورد الإهانة.

لكن أحمد خان لم يعطنى فرصة لإعداد نفسى وجيشى لمحاربته. حاصر تسلماس بجيش كبير. كان عدد رجالى قليل. لم أستطع صده. وكان الدخول فى حرب مباشرة معه جنون يمكن أن يفنى كل رجالى. فأخذت أفكر كيف أفك الحصار بأقل الخسائر الممكنة.

انتهز شامل الفرصة. أرسل لى من يدعونى لأكون فى جانبه مقابل أن يساعدنى فى حربى ضد أحمد خان. وأن أحكم كل آفاريا تحت

رايته. فانضممت إليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن تخلصت من عدوى أحمد خان كان يجب أن أرد الدين لشامل الذى يعرف أن أكبر إنجاز قد حققه إلى الآن هو ضمى إليه!

لست ممن يفخرون بأنفسهم لكننى أقرر حقائق للتاريخ.

كل بلاد القوقاز تعلم من هو الحاج مراد أبرع الرماة. الفارس الذى لا يهاب الموت. والذى لا يطلق مسدسه على هدف واحد مرتين.

ارتبطت سنوات مجد شامل وانتصاراته على الروس بوجودى معه. وبالغزوات التى قدت المريدين فيها.

ولم يكتشف الروس خدعتى الكبرى لهم إلا بعد وقت طويل. حيث كنت أعكس حدوات الخيل مما كان يجعلهم يطاردون جنودى فى الاتجاه الخاطئ.

كنت أشن غارات سريعة أعتمد فيها على المباغتة والقنص والفرار قبل أن يفيق العدو من المفاجأة. أهاجم معسكرات الروس. ومدن حلفائهم من الخانات ورؤساء القبائل.

أصبحت أهم رجل بعد شامل. فأثار ذلك حقد الكثيرين الذين أخذوا يوقعون بينى وبينه.

فى الحقيقة لم أكن أنا وشامل أصدقاء قط. ولم يمنحنى ثقته إطلاقا. كما أننى لم أكن أثق فيه. كانت تجمعنا المصالح المشتركة. العدو المشترك. وتفرقنا الأفكار الأساسية. وتاريخ الدماء الذى بينى وبينه.

كان شامل مريدا، صوفيا، حتى النخاع. كنت أحيانا أظنه لا يفهم العالم من حوله. لا يدرك لعبة السياسة وقواعدها. وعندما أتحدث معه أجده فاهما. لكنه لا يستفيد من فهمه هذا كما يجب. بل يضع أفكاره أولا قبل مصالحه.

كثيرا ما تجادلنا حول جدوى قتال الروس. كثيرا ما نصحته بمفاوضتهم بعد تحقيق انتصار كبير عليهم. حاولت أن أشرح له ما أراه قادما. مستقبلنا لن يختلف كثيرا عما حدث للشيخ منصور. وللغازى مولاى محمد. الروس إمبراطورية قوية ذات جيش حديث مدرب. جيش لا نهائى العدد مزود بالأسلحة والذخيرة والمدافع الثقيلة. دولة غنية قادرة على شراء الأنصار حتى من أقرب المقربين إلى شامل.

عندما أصل إلى هذه النقطة أجده من تحت حاجبيه الكثيفين ينظر إلىّ بعينيه الذئبيتين. نظرة محدقة تحاول قراءة المكتوب على صفحات عظامى. نظرة الذئب يحاول أن يعجم عود خصمه. ثم يقول بعد لحظات صمت غير مريح وهو يمسك أطراف لحيته الحمراء بأصابع ثلاثة:

أعرف هؤلاء يا حاج مراد! وسيخسرون كثيرا لو فعلوا. سيخسرون أكثر مما يظنون!

ثم يرتدى عباءة سادس الخلفاء الراشدين؛ كما أطلق عليه بعضهم، ويقول:

والله إننا لا نحارب لملك أو لمجد أو لمال. والله إننا لا نحارب حتى لنصر. إننا نحارب من أجل عقيدتنا وحريتنا. ولا مساومة فى العقيدة. ولا مساومة على الحرية. وإنها لحرب حتى النهاية. جهاد حتى نحمى عقيدتنا وننتقص من عدونا كامل حريتنا. أو

نظفر بشهادة تجمعنا عند ربنا بالأنبياء والصديقين وحسن أولئك رفيقا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم أفهم قط سر الرجل الذى سألنى سؤالا كان السبب فى الأحداث المتسارعة والدامية فى حياتى.

هل كان الرجل ممن يريدون الوقيعة بينى وبين شامل؟ أم هو ممن دسهم شامل نفسه علىّ ليختبر نواياي؟

لكننى رغم ما عرفت به من حذر شديد؛ أجبته. ومن الكهف الصغير، الفم، خرجت البقرة، الكلمة. وكان من المستحيل إعادتها مرة أخرى.

من تظنه جديرا بخلافة الإمام؟

جدير بخلافته أمضانا سيفا. وأسرعنا عدوا. وأمهرنا رميا. وأقدرنا على مقارعة العدو وقيادة الرجال.

تقصد نفسك إذن يا حاج مراد؟!

لم أجب. لكن ذلك لم يغير من الأمر شيئا.

غضب شامل بشدة. وقرر أن ساعة المواجهة قد حانت. أرسلنى إلى تابصران للغزو. كسبت الغزوة وغنمت مئات رؤوس الضأن والخيول. لكنه أعلن أننى لم أكن موفقا فى غزوتى. وأننى لست جديرا بأن أكون من نوابه. عزلنى. وطلب أن أرسل إليه كل ما غنمته. فأرسلته إليه مع بعض رجاله. فأرسل رجالا آخرين أخذوا كل ما أملك. وأمر بأن أقابله بنفسى. لكننى لم أكن أثق فى نيته تجاهى. كنت أشعر أنه سيقتلنى إن ذهبت إليه. ففررت بنفسى إلى المعسكر الآخر؛ الروس. فررت مع الدار مريدى المقرب

المخلص واثنين آخرين فقط من رجالى. ولم تكن لدى فرصة لأخذ أسرتى معى إذ احتجزها شامل ليساومنى عليها فيما بعد.

وفى الوقت نفسه أعلن ابنه خليفة له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت كصقر جبلى قص جناحية بنفسه وأدخل رأسه فى قفص من حديد صدئ. وعندما فكر فى التراجع كان الأوان قد فات. فلم يستطع أن يتخذ من القفص بيتا. ولم يستطع أن يعود إلى الفضاء الوسيع محلقا.

كانت أسرتى لدى شامل؛ أمى فاطمة وزوجتي وأطفالهما وابنى الأكبر يوسف الذى قارب الثامنة عشرة من عمره. أرسل لى شامل رسالة بخط ابنى يوسف بأنه سيرد إلىّ أسرتى إن عدت إلى المريدين مرة أخرى مع عفوه عنى وإعادة أملاكى إلىّ وتعيينى نائبا وقائدا من جديد. وإلا فإنه سيقتلهم جميعا. صدقت أنه سيقتلهم لكننى لم أصدق أنه يمكن أن يعفو عنى.

عندما سلمت نفسى للجنرال فورونتسوف أفهمته بوضوح أننى انفصلت تماما عن شامل وأنه الآن عدوى الأول لأنه يريد قتلى. لكننى مغلول اليد لأن شامل يحتجز أسرتى. فعلى الروس أن يساوموا شامل بإعطائه بعض المال وبعض أسرى المريدين لديهم ليعيدوا إلىّ أسرتى. وبعد ذلك فإننى مستعد لقيادة جيش كبير من الروس ومن أنصارى ومن أعداء شامل المعروفين وغير المعروفين الذين ينتظرون أية أشارة ليعلنوا العصيان. وأنا جدير بالقضاء على شامل وحركته نهائيا وحكم البلاد تحت رايتهم.

كان الروس لا يثقون فى صدق نواياي. بعضهم لمح تلميحات أقرب إلى الصراحة بأن التجائى إليهم هو خطة مدبرة بينى وبين

شامل غرضها الإيقاع بجيش من الروس وتدميره. ومن كانت لهم بى بعض الثقة لم يكن بيدهم شيء يفعلونه.

مجرد انفصالى عن شامل كان نصرا كبيرا لهم. لكنهم لم يخطو خطوة جدية بعد ذلك. يعاملوننى معاملة طيبة. يدفعون لى راتبى اليومى؛ خمس قطع ذهبية، بانتظام. يسمحون لى بالتريض فى الحقول والآكام حول المعسكر بشرط ألا أصطحب إلا واحدا فقط من أتباعى الثلاثة وأن يكون فى صحبتى عدد من الجنود القوزاق الموالين للروس.

وعندما كنت أطالبهم بسرعة إنجاز ما أطلب يسوفوننى. لقد أرسلنا إلى القائد العام. أرسلنا إلى الأمير تشرنشوف وزير الحربية. سيقابل الوزير الإمبراطور نيقولا الأول ويعرض عليه الأمر.

طال انتظارى. وعلمت أن صراعات تجرى بين كبار الروس؛ بالذات بين الأمير تشرنشوف والجنرال فورونتسوف بخصوصى. كان الجنرال متحمسا لى. يريد أن يفى لى بوعده ويساعدنى فى تحقيق ما أصبو إليه من إعادة أسرتى ومحاربة شامل والقضاء عليه. لكن الوزير؛ الذى كان يكره الجنرال، ولم يكن يهمه أمرى، حرص على إحباط خطط الجنرال. وكنت أنا فى النهاية ضحية هذا الصراع الغبى.

أيقنت أن الروس لن يقدموا لى شيئا. وأننى لابد أن أستعيد أسرتى من شامل بنفسى. دبرت خطة الهرب من المعسكر مع أتباعى الثلاثة. نجحنا فى البداية. لكن فصيلة من الروس أدركتنا ومعها الحاج أغا بن المخنولى فى مائتين من أتباعه. كان الحاج أغا بن المخنولى أخى فى العهد. لكنه الآن يحاربنى ويريد القضاء علىّ.

حارب أتباعى الثلاثة معى ببسالة ونحن نختبئ وسط أجمة كثيفة فى الغابة. لكن الكثرة انتصرت فى النهاية. تساقط رجالى واحدا بعد واحد. ثم انقض علىّ عدد كبير من الرجال بخناجرهم. كان أول خنجر يضرب رأسى هو خنجر أخى فى العهد الحاج أغا بن المخنولى. بعدها غبت عن العالم.

فى اللحظة الأخيرة. قبل أن أفقد أية صلة لى بهذا العالم رأيت كل شئ. كل ما مضى من حياتى. كأنه يخص شخصا آخر. وطرق رأسى الجريح؛ الذى أعلم أنهم سيقطعونه ويدورون به على كل حصون الروس ليثبتوا أنهم تخلصوا تماما من أقوى رجال شامل، سؤال لم يكن لدى وقت لإجابته:

هل كان شامل على حق؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إسماعيل..كرامة الأوساكوا

لم يجرح أحد كرامتى كما فعل شامل بن ذكاو. ها أنا الآن ابن سبعين عاما. لم يعد لى أسرة بعد مقتل ولدي الاثنين فى معارك شامل ضد الروس والخانات المتحالفين معهم. ثم تأتينى الإهانة من شامل نفسه. شامل الذى أذكره طفلا صغيرا يجلس فى حجر أبيه فى أمسيات الصيف الندية فوق السطوح المكنوسة جيدا والمرشوشة بالماء. ومعهم بعض رجال وشباب القرية وأطفالها. ومن خلف ستر رقيق تجلس نساء البيت وجاراتهن. وأنا فى صدر الحلقة. فوق كرسى من بعض الأحجار عليه حشية من صوف ملون أجلس. أحتضن ربابتى. أسلك حنجرتى. وأنطلق:

الله، إله الكون الواحد

باسمه أبدأ

محمد، نبى رسول ماجد

حبيب أوحد

يطرب أذنى تهليل الاستحسان. أحتضن تربة أرضنا السوداء. صخور جبالها. أشجار الغابات البعيدة. الحقول المزهوة بقمحها وكرمها وخضرها والذرة والفواكه الفواحة. يأتينى صوت خوار بقرة فى زريبة بيت المضيف. أبتسم للقوم. أقبل ربابتى بأطراف أصابعى. وأحكى.

عن الحب العذرى العفيف أحكى.

عن الرجال الذين ضحوا حياتهم فداء الوطن. والدين. والعرض. أحكى.

عن الأنهار المتفجرة من قمم الجبال تروينا أحكى.

عن صلابة الرجال وعنادهم أحكى.

عن جمال النساء وعفتهن أحكى.

عن حب الله والفناء فيه أحكى.

وأظل أحكى وأحكى وأحكى.

حتى يقف المضيف. يؤذن لصلاة الفجر. فينهض الجميع إلى المسجد.

أو نجلس فى الديوانية. المضيفة. مدرسة حياتنا التى فيها ينقل الشعراء الأوساكوا حكمة أجدادنا إلى الأحياء. وينقل فيها الحكواتية السير والقصص والأحداث. فنحفظ عاداتنا وأخلاقنا وتاريخنا.

الولد الصغير الذى كان يمنحنى أذنيه بشغف هو الذى يهيننى الآن.

كيف بالإمام الحافظ للشعر. المستعين به فى مواقفه وخطبه يقرر أن يصمت الشعراء؟!

وكيف تكون الحياة بغير الشعر؟

كيف ستغرد العصافير؟ كيف ستشمخ الصقور؟ كيف سينتشر شذى الورود؟ كيف سيعشق الناس؟ كيف تخلد الأعمال العظيمة؟ كيف تصمد الأخلاق الحميدة؟ كيف تستمر الحياة.. بغير الشعر؟!

هل سيجلد من يخالف قراره؟ هل سيعدمه؟ وإن يكن. سأذهب إليه. سأقف فى وجهه. الجلد أهون من جرح الكرامة. الإعدام أحب من الصمت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد صلاة الجمعة. جلست على باب المسجد. أخرجت ربابتى من جرابها القماشى الأخضر. داعبتها بأطراف أصابعى الواهنة. ثم انطلقت صادحا بأعلى ما أستطيع من صوت حتى يسمعنى الإمام الجالس فى المسجد مع بعض مريديه:

الله، إله الكون الواحد

باسمه أبدأ

محمد، نبى رسول ماجد

حبيب أوحد

التف بعض الناس حولى. ثم ابتعدوا بسرعة كأننى مجزوم. هرول بعض المريدين إلىّ. وقف الناس بعيدا يشاهدون المجنون الذى لا يريد أن يتوقف بينما يشد مريد منى الربابة. وينهرنى بعضهم لكى أصمت حتى لا أنال عقاب من يخالف أوامر الإمام.

أخذوا الربابة لكننى ظللت أرفع صوتى. فخرج الإمام من المسجد غاضبا. لكنه عندما رآنى توقف. رأيت على وجهه سؤال كأنه: أهو أنت؟!

أشار إليهم أن يتركونى. اقترب منى. حدق فى عيني الكليلتين سائلا:

ألا تعرف بأوامرى أن يصمت الشعراء؟

أعرف.

فلماذا لم تصمت إذن؟

فلتصمت الطيور أولا.

ولتصمت نسائم الربيع.

ولتصمت الريح المصفرة فى الشتاء.

ولتصمت حيوانات الحقول.

وليصمت خرير الماء فى نهر قويصو.

مرها يا ولدى!

مرها يا مولاى!

فإن استجابت، وإن صمتت.

سأقطع أوتار حنجرتى بخنجر صمتى

إلى الأبد!

إننا فى حالة جهاد دائمة. جهاد أيها الشيخ. وكلام الشعراء يخدر الناس. يسكرهم ويشغلهم بالتوافه ويقعدهم عن الجهاد. لا وقت للأشعار. لا وقت للحكايات. دعوهم يحكون عن جهادنا. وينشدون أشعارهم عن فعالنا.

لا يمكن أن تقتل الشعر يا إمام.

مستحيل أن يصمت الشعراء.

كيف يمكن أن تكون الحياة بغير الشعر؟

الشعر هو الذى يمنح الفرحة ألق البهجة.

الشعر هو الذى يعطى جلائل الأعمال صك الوجود.

الشعر هو الذى يمنح العطر شذاه.

ويمنح قوس قزح بهاء ألوانه.

النهر بغير الشعر وادى جاف قبيح.

الجبل بغير الشعر مجرد صخور رمادية جرداء.

الحب بغير الشعر غريزة بهيمية.

المجد بغير الشعر دماء متجلطة على تراب قمئ.

الحياة بغير الشعر عدم.

ألا تخشى عقاب من يخالف أوامرى أيها الشيخ؟

الصمت للشاعر أقسى من الموت يا إمام.

فإذا ضربتك بمقرعتى؟

سأقول الشعر.

وإذا جلدتك؟

سأقول الشعر.

وإذا أمرت بموتك؟

سأقول الشعر.

ويوم الدين أقاضيك أمام ربى

بقصيدة شعر!

ابتسم الإمام المليح الوجه. ضحكت عيناه. وضع يده على كتفى:

والله إنى لأذكرك أيها الشاعر. والله إنى لأحب الشعر. لكننى لا أحب الكذابين. سيصمت كل الشعراء الكاذبون خشية عقابى. لكن الشاعر الصادق سيظل يصدح ولن يخشانى. اذهب. قل ما تشاء. بث فى الناس حب الله والحرية. علم الناس مباهج الحياة وجمال الاستشهاد. وعلمهم تاريخنا التليد!

الناس فى شوق إلى الشعر. ما إن انتهى الإمام من حديثه حتى ناولنى المريد ربابتى. والتف الناس حولى. جلسوا على الأرض أمام المسجد. ينتظرون إنشادى.

نظرت إلى شامل لأتأكد من صدق ما قال. ابتسم عارفا بما يدور فى نفسى. أفسح لنفسه مكانا على الأرض وجلس يستمع إلى حكاية دربند.. باب الأبواب.

التى تشرف على الممر السهلى، الباب الوحيد بين قارتى آسيا وأوروبا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فهمت الآن شامل!

حاول الروس أن يقضوا على روحنا الحقيقية. جمعوا كل المخطوطات التى تخص بلادنا. ألقوها فى بحيرة كازان آم. أرسل الإمام على وجه السرعة رجاله إلى كل أنحاء الشيشان والداغستان. جمع العلماء والشعراء الحقيقيين والفقهاء وزعماء العشائر. أمر الجميع بالبدء فورا فى إعادة كتابة كل ما أغرقه الروس. لتظل الروح فينا سارية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توروناو..نعجب بهم.. ونقتلهم

ميخائيلوف توروناو..

لن تجد هذا الاسم فى أى كتاب، لكنه اسمى. والكتاب الوحيد الذى كان يمكن أن ينشر موقعا بهذا الاسم لم ير النور حتى الآن. ربما بعد موتى يستطيع ورثتى نشره إن وجدوا أن ثمة فائدة من هذا النشر.

إنه عن ذلك الرجل الذى شغلتنى أسطورته لسنوات عديدة. شامل، الإمام شامل كما يسميه أتباعه. الرجل الذى حارب روسيا القيصرية العظمى خمسة وعشرين عاما. وحقق الكثير من الانتصارات. ثم وقع فى الأسر. ثم...

لماذا أسبق الحوادث؟ لابد أن أتمهل وأن أكون حريصا وأنا أكتب عن هذا الرجل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لن أستطيع أن أفهم شامل دون عودة إلى تاريخ بلاده، فهو امتداد لذلك التاريخ، وتمثيل له.

فهل أغوص فى تاريخ القوقاز منذ ما قبل ميلاد المسيح؟ أم مع بداية دخول الإسلام؟ أم أبدأ منذ عصورنا الحديثة؟

لقد شكلت الجغرافيا أخلاق هذه القبائل، فجعلتها عنيدة، صلبة، مقاتلة، معبودها الحرية كما يقول شعراؤنا.

أما أكبر العوامل تأثيرا فيها الآن فهو الإسلام الذى عرفته تلك البلاد حوالى سنة ٦٠١ ميلادية على يد سراقة بن عمرو بأذربيجان، وتبعه عبد الرحمن بن ربيعة بدخول دربند على

ساحل بحر قزوين، والتى أطلق العرب عليها اسم باب الأبواب، وهى تقع فى داغستان المولود بها شامل.

وأكثر الحوادث السياسية تأثيرا فيما أهتم به الآن هو الصراع بين المسلمين الصفويين والمسلمين العثمانيين على تلك البلاد بعد سقوط دولة المغول، إذ كانت بلاد القوقاز ضمن أملاك أسرة جوجى بن جنكيز خان، وهى القبيلة المنعوتة بالقبيلة الذهبية، التى كانت أولى قبائل المغول دخولا فى الإسلام خاصة أيام ملكهم بركة خان، مما أدى إلى انتشار الإسلام فى بلاد القوقاز.

ولكن انشغال ملوك القبيلة الذهبية بالحروب المستمرة مع بنى عمومتهم، الدولة الإيلخانية، هولاكو وأبناؤه، أدى فى النهاية إلى القضاء على دولة المغول، وتفتت ملكها إلى عدد من الدويلات الصغيرة، فى الوقت الذى كانت قوتان إسلاميتان تنموان بسرعة، إحداهما سنية المذهب مثل معظم أهالى القوقاز، وهى دولة الخلفاء العثمانيين، والثانية شيعية المذهب وهى دولة الصفويين الذين لم تدخل فى مذهبهم سوى أذربيجان.

وفى الوقت نفسه كانت الإمبراطورية الروسية يبزغ شمسها، وتسعى للتوسع على حساب الدول المجاورة لها.

وقد استطاع العثمانيون وقف التوسع الروسى فى بلاد القوقاز فترة، بينما ضم الصفويون معظم أجزائها بسبب انشغال العثمانيين بحرب الروس، فلما انتهت الحرب بين الروس والعثمانيين تفرغ هؤلاء للصفويين، ومدوا نفوذهم إلى معظم بلاد القوقاز، ونجحوا فى نشر الإسلام بين قبائل أخرى لم تكن قد أسلمت بعد مثل الشركسى والقبرطاى والأديغة والأنجاز

والأوستين والأنجوس وأصبح غالب سكان القوقاز مسلمين سنة وتركز الشيعة في أذربيجان، بينما بقى معظم الأرمن مسيحيين.

لكن إمبراطوريتنا الفتية لم تركن إلى هذا، بل استفادت من الخلافات والخصومات بين العثمانيين والصفويين، فاحتلت صحراء القوقاز، ثم داغستان، فالشيشان، حتى بسطت سلطانها بالتدريج على القوقاز لانهزام العثمانيين المتوالى أمامها، مما كان له تأثيره القوى فيما بعد، سواء فى ثورة القوقازيين على الحكم الروسى، أو فى طبيعة هذه الثورة نفسها، من حيث منبعها، وأهدافها، وعلاقاتها بغيرها من حكام المسلمين.

فهل كان شامل يدرك أنه يحارب إمبراطورية قوية هزمت أكبر قوة إسلامية؟

هل كان يظن أنه قادر على الصمود وحده؟

أم كان يطمع فى مساعدة؟ ومن أين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحيرنى ظاهرة فى أدبياتنا تتعلق بشعب القوقاز، إننا نحاول سحق هؤلاء الناس، نطمس هويتهم القومية، والأهم هويتهم الدينية، ولا ندخر وسعا فى ذلك، ولا نأبه إن قتلنا منهم مئات أو آلاف، أو أبدنا قرى بأكملها، بل نطلب الأوسمة لمن يفعلون ذلك كما طلب الجنرال يرمولوف من القيصر الإسكندر الأول تقليد الأمير بيكوفيتش تشيركاسكي وسام صليب القديس جورج لإبادته قرية شيشانية كاملة وراء نهر الكوبان، فلم يبق من سكانها أحدا إطلاقا. يرمولوف الأسطورة الدموية الذى بنى مدينة جروزنى سنة ١٨١٨ لتكون حصنا ينطلق منه لسحق الثائرين على احتلالنا لبلادهم، حين كان حاكما للقفقاس وقائدا

للقوات القيصرية. كان يدير معاركه من كوخ تحت الأرض. كان شديد الصرامة والقسوة فى سحق القوقازيين المتمردين. لم يكن يقاتل. كان يدمر. يحرق قرى بكاملها بمن فيها من بشر وشجر وحقول وغابات وحيوانات. حتى أصبح اسمه أسطورة خلدها بوشكين شاعرنا الشهير:

أيها القفقاسي

طأطئ رأسك الثلجي،

واخضع

إن يرمولوف قادم.

ومع ذلك، فإننا لا نكف عن الإعجاب بهذا الشعب، ولا نكف عن التصريح بهذا الإعجاب، القيصر نفسه أبدى إعجابه بشامل، وتوقيره له، وهو أسيره.

يشبههم بعضنا بالفرنسيين فى وسامتهم وذكائهم "فرنساويو القفقاس، سريعو الخاطر، أذكياء بالفطرة. مرحون، قدر ما هم مقاتلون. ومعتدون بأنفسهم".

ويؤكد من حاربوهم منا أنهم كخصوم يستحقون "كل تقدير واحترام. ففي وسط غاباتهم وجبالهم لا تستطيع أي قوات أن تحتقرهم. فقد كانوا رماة مهرة. شجعانا إلى أقصى الحدود. أذكياء في الشئون العسكرية كما أنهم سريعون في استغلال الظروف المحلية. وينتهزون فرصة كل خطأ ارتكبناه. ويستثمرونه بسرعة فائقة من أجل تدميرنا".

ويصفهم أحد شعرائنا:

"شرسة هى القبائل التي تقطن تلك الشعاب،

معبودها الحرية،

والكفاح قانونها الوحيد،

قوية في صداقتها،

لكنها أقوى في الانتقام،

لا تدين لسيد يملي عليها تعاليمه من عل،

تجزي الخير بالخير

وترد الشر بالشر،

ولا حدود لديها للكراهية،

ولا للمحبة".

بل إن قيصرنا إيفان الرهيب تسبب فى صراعات سياسية عديدة وعاصفة داخل الطبقة الحاكمة القيصرية فى القرن السادس عشر، عندما اقترن بالشيشانية الجميلة ماريا التى استطاعت مد الجسور بين قومها والقيصر، وكان اقترانه بها فى حقيقته إعجابا بصلابة قومها، واستلهاما لسجاياهم القتالية النبيلة.

أهو تناقض؟

أم هو واقع الصراع الإنسانى مع خصم تعجب به، وتمنحه عظيم احترامك، وأنت تطلق رصاصتك فى صدره؟!

وهل أستطيع أنا ميخائيلوف تورناو التخلص من هذا التناقض أو تجاوزه وأنا أتحدث عن شامل؟

بل هل تخلصت منه وتجاوزته بداخلى؟

إننى أفيض إعجابا بهذا الرجل، ولهذا أحاول فهم سره، فهم أسطورته.

وأنا؛ فى الوقت نفسه حاربت ضده أكثر من مرة، ولو استطعت لقتلته فى ميدان المعركة.

فهل يمكن أن يصل من كان فى مثل وضعى إلى نتائج صحيحة، نتائج يقبلها العقل، ولا تشوبها شائبة تحيز، أو مشاعر غير مستقرة؟

ومن قال أنه يمكن الوصول إلى مثل هذه النتائج فيما يخص من كانوا مثل شامل؟!!

لقد راقبته حوالى عشر سنوات، فى قفصه، وبلا أجنحة، بعد أن كان العالم كله ملكه، بعد أن كان سيد الغابات، وأمير قمم الجبال، راقبته فى منفاه ببلدة كالوجا الصغيرة بجوار موسكو، كان يعيش مع أسرته، وعدد من أتباعه الذين أصروا على مرافقته فى منفاه. واثنين من المترجمين الذى عينهم له القيصر؛ كنت أحدهما بناءً على طلبى.

راقبته وهو يمشى وحيدا، أو صامتا مع أتباعه، شعرت أنه يعيد تقييم حياته، لن يجد فرصة أفضل من ذلك، لديه وقت أكثر مما يحتاج إليه، كان يشغل نفسه بالقراءة، بالصلاة، بالتفكير، لكن جسده كان يذوى، وأعتقد أننى كنت أعرف السبب.

الحرية يا شيخ شامل.. الحرية؟.. أليس كذلك؟

بلى.. بلى.. أيها السيد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أول مرة أراه فيها كان كائنا متشكلا من الدخان والغبار. كان كائنا طويلا يخرج من بيت توشك قواتنا أن تهدمه. من باب مكسور يخرج حاملا سيفه. صارخا بصوت جهورى مخيف:

لا إله إلا الله

كان الصمت قد خيم على المكان حتى ظننا أن كل من بالبيت مع الغازى مولاى محمد قد قتلوا. اقترب بعض جنودنا ببطء. فجأة خرج عليهم. وقفوا مبهورين. كنت أراقبهم من بعيد. لم أستطع إلا أن أحبس أنفاسى. كانت لحظة غير عادية فى حرب خطيرة. دار ببال البعض أن شبح. وعندما استعاد الجنود أنفسهم كان بعضهم قد طارت رأسه فعلا. وكان شامل قد اختفى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ذلك كنت حريصا على تتبع أخباره. أسأل عنه الأسرى الذين يقعون فى أيدينا. أسأل عنه الحاج مراد الذى تنقل كثيرا بولائه ما بيننا وبين شامل. أسأل الخانات الذين يكرهونه لأنه يهدد سلطانهم المحلى بحلمه الكبير فى إنشاء دولة لأهل القوقاز المسلمين وعمله الدءوب لتحقيق الحلم.

استطعت أن أرسم فى مخيلتى صورة شديدة التناقض. لأن اللونين اللذين أتيحا لى كانا المحبة التى تصل لدرجة التقديس أو العبادة. حيث كان شامل أسطورة الجبليين ومعبودهم ومخلصهم. واللون الآخر كان هو الكراهية السوداء التى يكنها أعداء شامل له.

ذات مرة قال لى أسير شاب اسمه على:

أنا شيشانى الأب. أمى من داغستان. أنا من المريدين.

كان يتحدث بفخر كأنه يقول أنا القيصر بطرس الأكبر!

سألته:

هل أنت متزوج؟

نعم. منذ أربعة أشهر.

هل تحب زوجتك.

بالطبع فهى ابنة عمى وتربينا معا.

ألا تشعر بوحشة إليها.

إننى شديد الشوق إليها.

فلماذا تركتها؟ هل ترغب فى العودة إليها الآن وتسليم شامل لنا؟

انتفض الشاب كمن لدغه ثعبان جبلى. كاد يحرقنى بنظراته. صرخ فىّ:

أأبيع الإمام من أجل امرأة؟! أأبيع الإمام من أجل شيء؟! اقتلنى أفضل أيها الضابط لكن عندما يسيل دمى لن تجد فيه إلا إخلاصا للإمام!

وقابلته للمرة الثانية. كنت أعسكر بفصيلتى فى إحدى القرى الصديقة لنا بمنطقة أوارستان. حاصر شامل القرية بقواته. ثم هاجمها بعنف. قاتلناه ومعنا أهل القرية. لكنه فى النهاية انتصر. واتفق أهل القرية أن يسلموها له صلحا بدلا من أن يأخذها عنوة. وطلبوا منه الأمان لهم ولعيالهم. وافق شامل لكنه اشترط أن تسلم فصيلتى له نفسها وأن يكون أعيان القرية معنا.

رفض الجنود فى البداية. ورفض بعض الأعيان.

لو سلمنا له أنفسنا سينحرنا نحرا.

لنحاربه حتى آخر رصاصة أفضل من أن نسلم له أنفسنا.

لكنه يفى بوعده دائما.

لو أراد عدم الوفاء سيجد لذلك مخرجا.

محاربته الآن معناها الفناء.

والتسليم له موت أيضا. لكنه موت بغير كرامة.

لكننا فى النهاية سلمنا له أنفسنا.

خرجت بفصيلتى فى طابور أنا فى مقدمته. فى يد كل منا بندقيته. على فوهة البنادق نضع قلانسنا.

كنت أتحرك بخطوات بطيئة. لدى أمل واهن فى النجاة. لكننى أنتظر رصاصة فى أية لحظة. أو ضربة سيف تطيح برأسى.

لكن شامل كان يعد لنا مفاجأة من نوع آخر.

أحاط بنا رجاله. بينما وقف هو يتأملنا. وبدلا من أن يتملكه زهو النصر الذى يتملك قادتنا أحيانا فيظنون أنهم امتلكوا العالم، حتى ولو كان نصرهم وهما. وجدته يخر على الأرض ساجدا. طال سجوده. علمت أنه يشكر ربه الذى منحه ذلك النصر. صدقت ما أخبرنى به المريد الشاب الأسير الذى قال إن إمامه يعتقد أن الله ينصره بدعاء الفقراء لذلك يمر عليهم قبل أية غزوة. يوزع عليهم الطعام والكساء ويسألهم الدعاء له بالنصر.

وبسرعة نصبت لنا الخيام. وذبحت الثيران. وأعد الطعام. كان يعاملنا كأصدقاء بعد أن أصبحنا فى قبضته. وكان يعاملنى باحترام لرتبتى كضابط. وعفا عن أهل القرية الذين حاربوه. ثم استبدلنا ببعض الأسرى من المريدين.

كنت أسأل نفسى وأنا أضع قطعة مطهوة جيدا من فخذ الثور فى فمى:

ماذا كان الجنرال يرمولوف سيفعل لو كان مكان شامل؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على..الهروب من أحولكه

ضيق الروس وأتباعهم الخناق على المريدين فأخرجوهم من كل المدن حتى كمره. وقد تعاون أهل كمره مع الروس فى محاربة المريدين. فاضطر الإمام إلى الالتجاء إلى أحولكه. القرية الجبلية صعبة المرتقى. حيث كان يعيش أربعة آلاف رجل وامرأة وطفل. منهم حوالى ألف رجل فقط من المقاتلين.

كانت منازل أحولكه فى معظمها كهوف وحفر تحت الأرض. وأنهارها تجرى من تحت مرتفعات صخرية يتم الوصول إليها عن طريق ممرات تنحدر من تلك المرتفعات إلى عمق يصل إلى مئات الأقدام.

كان الحصار شديد الإحكام. القناصة الروس ينتشرون على القمم القريبة مستعدون فى كل لحظة لاقتناص شبح أى شخص يظهر لهم. نصبت بطاريات المدفعية الثقيلة قريبا من أحولكه وأخذت تدك الحصون والدعامات التى أقمناها.

أخذ الرجال يتساقطون فى المعارك الخاطفة التى كان بعضنا يخوضها متسللا تحت ستار الظلام لاقتناص من يستطيع من الروس وأعوانهم.

نفد الطعام. وشح الماء. فكان الإمام يرسلنى مع بعض المريدين كل ليلة إلى حافة النهر لجلب ما يكفى من ماء. كنا نتسلل معرضين أنفسنا لخطر السقوط القاتل. ولرصاصات القناصة التى أصابت أكثر من واحد منا. بعضنا عوفى من إصابته. والبعض فقد قدما أو ذراعا. كما سقط ثلاثة خلال الحصار فى الهوة السحيقة.

قادت شعينات زوجة الإمام الأثيرة بعض النساء للمشاركة فى المعارك. حيث ارتدين ملابس الرجال وحملن السلاح وقاتلن بشجاعة أذهلتنا. فقد الإمام زوجته جوهرة وابنه سعيد أثناء المعارك.

استمر الحصار ثمانين يومًا. كان الروس يزدادون عنفا يوما بعد يوم. وكان عدد المقاتلين يتناقص بسرعة رهيبة. الأطفال والنساء يقتلهم الجوع.

أصدر الإمام أوامره إلى أهله:

قاتلوا بقدر ما تستطيعون! قاتلوا حتى الموت! فمن يجد نفسه سيقع فى أيدي الروس فليلق بنفسه من فوق الجبل أو ليلق بنفسه فى النهر!

وكانت أخته فاطمة أول من ألقى بنفسه من فوق جرف عالٍ بعد أن أثخنتها الجراح حتى لا تقع أسيرة فى أيدى الأعداء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال لى يوسف الكمرى:

سأسلم نفسى للروس الليلة!

هل جننت يا يوسف؟ إنهم غدارون. سيقتلونك لا محالة.

لست وحدى من سيفعل ذلك يا على. معى أكثر من عشرين من المريدين.

استسلامكم هذا سيفت فى عضد الآخرين ويملأ قلوبهم باليأس.

بل سيمنحهم الأمل ويمنحنا الجنة. الإمام يعرف يا على.

لم أصدق أن الإمام يعرف بذلك. فكرت أن أذهب وأخبره. أعرف أن يوسف لا يكذب. وأنه ائتمننى على سره. لكن الأمر جد

خطير. دخلت على الإمام. كان فى كهفه يعد بعض السيوف والخناجر مع بعض المريدين كمن يستعدون لخوض معركة فورا. كان يوسف معهم. نظر إلىّ يوسف نظرة غضب ورجاء. فخرجت.

وفى الليل كنت أراقب يوسف ومن معه يتسللون. ويتوجهون إلى معسكر الروس رافعين أيديهم إلى أعلى.

أقبل عليهم بعض جنود الروس وبعض الداغستانيين المتعاونين معهم ليأسروهم. فألقى يوسف والمريدون عباءاتهم على الأرض بسرعة إذ لم يكن لها أزرار. فظهرت الخناجر والسيوف المخبأة تحتها. أخذوا يقتلون فى الروس وأعوانهم الذين أذهلتهم المفاجأة عن أى رد فعل سريع. لكن القناصة كانوا مستعدين. أخذوا يطلقون رصاصهم على المريدين حتى أفنوا معظمهم. لم يعد إلا اثنان أحدهما كان جرحه خطيرا. مات بعد ساعة من عودته. أما يوسف فقد ذهب مع أصحابه إلى الجنة التى حدثنى عنها فى الصباح.

تكرر هذا عدة مرات أثناء الحصار الطويل. لم يمت رجل فى أحولكه إلا بعد أن كبد الروس خسائر جمة. هل أقول رجل وامرأة أيضا؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قلت للإمام:

عذرا يا مولاى! لكن لابد من الهرب!

أبعد أن فقدنا أحبابنا نهرب نحن يا على؟

نهرب من أجل ديننا يا مولاى. إن من استشهدوا ذهبوا إلى جنات ربهم. أما أنت فلو فقدناك لن تقوم للمريدين قائمة بعد

ذلك.

دعنى أفكر. سأصلى وأستخير الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المدفعية الروسية تضرب أحولكه بعنف لم يحدث مثله طوال أيام الحصار. الجنود يتقدمون إلى أحولكه. يدخلونها. يأسرون العدد القليل الباقى من النساء والأطفال والرجال الجرحى. يفتشون عن الإمام فى كل مكان. فى البيوت والكهوف. لا يعثرون له على أثر. يضحك أحد قادتهم:

يبدو أنه ألقى نفسه من فوق الجبل حتى لا يقع فى أيدينا! فلنشرب نخب الانتصار الساحق!

بل إن القائد كتب إلى وزير الحربية رسالة عاجلة انطلق بها فارس إلى سانت بطرسبرج:

إن الأمن قد عم جميع أنحاء البلاد؛ وإن شاميلا وإن لم يقع أسيرا، إلا أنه قد جُرِّد من كل نفوذه، حيث مات أكثر أتباعه وأسر الباقون، وأصبح يهيم على وجهه وحده فى الجبال لا يفكر إلا فيما يقيم أوَدَه، وفى سلامته الشخصية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى ذلك الوقت كان الإمام وأسرته وبعض المريدين قد وصلوا إلى الأمان!

فمع بداية الليل، وقبل أن يبدأ الهجوم بقليل، كنا نتسلل من أحولكه. اختبئنا فى جرف منحدر مطل على النهر. نزلنا من الجبل فى الظلمة ببطء شديد. يمكن لأحدنا أن يسقط فى أية لحظة. زوجات الإمام أدميت أيديهن. الإمام يربط ابنه غازى محمد على ظهره. وصلنا إلى ضفة النهر بصعوبة شديدة. كان

عدد منا يحملون بعض الدمى الخشبية التى صنعناها خلال اليومين السابقين وألبسنها على هيئة المريدين. ألقينا بها فى النهر. فشغلت الحراس الروس الذين أخذوا يطلقون عليها النار. بينما زحفنا على بطوننا بحذر شديد وبلا صوت على طول ضفة النهر. وصلنا إلى وادى ضيق يمكن أن يخفينا عن أعين العدو. لكننا صادفنا بعض الحراس الذبن كانوا يمشطون المكان بحثا عن هاربين. تبادلنا إطلاق النار معهم. أصيب الإمام فى كتفه. وأصيب غازى محمد فى قدمه اليمنى وكاد يسقط فى النهر. فأسرعت إلى حمله بين ذراعي بينما تحامل الإمام على نفسه. وواصلنا التقدم فى الوادى الضيق.

قال لى غازى محمد وهو فى السابعة من عمره:

ألقنى فى النهر حتى لا يأخذنى العدو!

ابتسمت له مشجعا وأنا أحث الخطى:

لن يأخذك أحد. لا تقلق.

وبينما نحن فى نهاية الوادى كانت مجموعة من عيون الروس تحاول تعقبنا. أطلقوا علينا النار. فرددنا عليهم. كانوا للأسف من أهل كمره. كثفنا إطلاق النار عليهم حتى ابتعدوا. شعر الإمام بمرارة شديدة. استل سيفه ورفعه فى اتجاههم وصرخ:

سوف نلتقى مرة أخرى يا أهل كمره!

ودخلنا إلى منطقة مليئة بالشعاب والممرات فلم يستطع الرقباء أن يصلوا إلينا. صعدنا بعض الممرات الجبلية. نزلنا أخرى. هدنا التعب والجوع والعطش. قال غازى محمد لأبيه:

سأموت جوعا يا أبى!

نظر الأب إلى ابنه بأسى حنون وقال له:

أترى قمة هذا الجبل؟

نعم.

عندما نصل هناك ستأكل وتشرب!

ظللنا نتسلق صخور الجبل الوعرة لعدة ساعات بعد الفجر حتى وصلنا إلى قمة الجبل وليست بأحدنا قدرة حتى على التقاط أنفاسه.

ارتمينا جميعا على الأرض. بعضنا راح فى سبات عميق. بعضنا أمسك بعض الحشائش وأخذ يلوكها. آخرون كانوا يمصون بعض الحجارة المنداة.

اقترب منا عجوز فوق حصانه. كان قصير القامة، لحيته الرمادية تغطى صدره. رآه الإمام فوقف بسرعة ورفع سيفه استعدادا للنزال. لكن الرجل نزل من فوق حصانه. وضع يده على صدره. سلم على الإمام. وطلب منا أن نصحبه ليخفينا عن أعين الروس ورقبائهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استضافنا شاب استشهد أبوه فى أحولكه. ذبح لنا خروفين. أكلنا وشربنا وعالجنا الجرحى. ثم انتقلنا إلى قرية أخرى مستخفين حتى لا يعلم بنا أحد ويدل علينا. لكن خبر وجود الإمام فى قرية شبوت انتشر فى كل القرى المجاورة. فأتت أفواج الناس تبايعه وتؤكد له أنها معه.

وفى شبوت جاء إلى الإمام وفد من الشيشان:

أدركنا يا إمام!

نزع الروس سلاحنا.

حولونا إلى فلاحين!

أخضعونا للتجنيد الإلزامى فى جيشهم.

نشروا بيننا المفاسد.

لا يحكم أولياؤهم من الأمراء فينا حكم الشريعة. بل حكم قانون الروس.

الشيشان كلهم ساخطون ثائرون.

هم بانتظارك يا إمام لتقودهم فى حرب مقدسة ضد الروس وأعوانهم.

كلنا نبايعك يا إمام!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخل الإمام إلى الشيشان السفلى من جهة الحدود الغربية مع داغستان. وأخذ البيعة والعهد على قادتهم وكبرائهم.

ولم يضيع بعد ذلك لحظة. بدأ فى الاستفادة من دروس الماضى.

فكان أول ما فعله هو التخطيط لإقامة دولة تشمل داغستان والشيشان يمكنها الوقوف فى وجه الروس ومقاومة من يتعاونون معهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعينات..عصفورى الجبلى

عندما كانوا يلومون أبى أمير مدينة مزدك لأننى بلغت العشرين ولم أتزوج لأنه رفض كل من تقدموا للزواج منى من أمراء وأعيان وأغنياء من أهلنا الأرمن أو من الروس أو من غيرهم؛ كان يضحك ويقول:

شعينات أميرتى الجميلة لن يأخذها منى إلا فارس جدير بها!

كان يتحدث عن فارس خيالى يملك قلب أسد وجرأة صقر وبهاء قمر جبلى.

وفى انتظارى لهذا الفارس لم يملأ عيني أحد. ولم أفهم ما هو الحب اللاتى تتحدث عنه صديقاتى. يخبرننى عن رفاقهن. الجولات بين الحقول على ظهور الخيول المسرعة. السباحة فى الأنهار معا. القبلات المختلسة فى الحدائق. بعضهن يذهبن إلى ما هو أبعد. لكن ذلك كله لا يؤثر فىّ. ربما يثير فضولى. يدفعنى لمراقبتهن. لكنه لا يحرك إحساسى ولا يجعلنى أحاول تجربة ما يفعلن. وإذا حاولت إحداهن السخرية منى لأنه ليس لى حبيب كنت أجيبها بكبرياء ملكى:

فارسى لم يظهر بعد!

فارسك لم يخلق بعد أيتها الجميلة!

نضحك معا. لكن السؤال يرن بداخل نفسى:

ألم يخلق فارسى بعد فعلا؟ أم هو فى مكان ما من الوجود؟ هل سيقدر لى أن أقابله؟ كيف سأشعر عندما أراه؟ ماذا سافعل؟

كنت أشعر بمنتهى الإثارة وأنا أفكر هكذا فأغيب فى خيالات من ضباب وردى معطر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت أقف فى شرفتى أتطلع إلى قمم الجبال البعيدة والمروج الخضراء. ثمة فلاح يمسك بمقود ثور أسود ضخم. وزوجته تسير بجواره على رأسها كومة من الدريس.

وقف على إفريز النافذة عصفور جبلى رمادى ذيله يميل إلى الاخضرار. مددت يدى لأمسكه. فخالف توقعى وطار ليس إلى الفضاء الفسيح ولكن إلى داخل الحجرة.

التفت إليه. طار إلىّ. وقف على كتفى. ضحكت. وقف على صدرى. قدماه على صدرى وهو فى وضع أفقى. جناحاه يرفرفان ببطء. وعيناه تنظران إلى وجهى. وقفت صامتة أتابع ما يفعله. طار ووقف قبالة عيني. حدق فيهما. فى عمق عينيه السوداوين كان ثمة اخضرار لطيف. مددت يدى فوقف عليها. غرد كنغم سماوى. درت فى الحجرة حول نفسى كراقصة بالية وهو على يدي. أصبح صديقى الوحيد. وحبيبى أيضا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا أفهم فى السياسة ولا الحرب. لكنى أجنى ثمرهما. شهدهما الحلو يمنحنى لقب الإمارة والترف الذى أحيا فيه. ولم أكن أعلم أن لهما ثمارا أخرى فى مرارة العلقم وطعم الرماد.

ففى سنة ١٨٤٠ حاصر القوقازيون مزدك. كان هؤلاء الجبليون المتوحشون يحاربون كل من يتحالف مع الروس. وكان الأرمن فى الجانب الروسى.

سمعت عن المعركة. عن عنفها وقسوتها وبسالة الجانبين.

وعندما ارتد الجبليون عن مزدك أعلن أبى أنه انتصر عليهم ودحرهم. وأعلن الجبليون أنهم انتصروا وربحوا الغنائم الكثيرة

من الخيول والثيران والأغنام والأموال والذهب والأسرى والسبايا.

أما أنا فكنت إحدى هؤلاء السبايا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فكرت فى قتل نفسى وأنا مربوطة مع بعض الفتيات والسيدات من الأحرار والعبيد يقودنا شيشانى طويل القامة. طويل السوالف. متجهم الوجه. لكننى لم أجرؤ على ذلك. كانت ذكرى النعيم القريب تدفعنى إلى اليأس وتمنحنى الأمل فى الوقت ذاته. لكن ما أبقانى على قيد الحياة فعلا هو نغمات سماوية محببة وجدتها تطرق أذنى. كان عصفورى الجبلى يطير بالقرب منى كأنه يواسينى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان لجمالى مهابة تصد عنه من يحاولون الاقتراب منى. بشرتى اللبنية المشربة بحمرة شمس الضحى. عيناي الزرقاوان. جسدى المرمى الذى يشع فتنة وكبرياء.

وعندما علموا أننى ابنة أمير مزدك جعلونى من نصيب إمامهم المسمى شامل.

كنت أسمع اسم هذا الرجل كثيرا.

أسمعه فى بلاط أبى مقرونا بالخوف والاحتقار والكراهية.

أسمعه وأنا أسيرة مجللا بمحبة نادرة. هذا الرجل هو معبود الجبليين لا ريب.

كان بى فضول لأن أراه. لكنهم عندما اقتادونى إلى خيمته كنت أكن له كراهية لو ضربت بها كل غابات القوقاز لأحرقتها. فها

هم يأخذوننى إلى الرجل الذى حولنى من أميرة إلى أمة. الرجل الذى سيحولنى من عذراء إلى امرأة لمجرد إشباع نهمه البهيمي. فأين فارسى الذى طالما حلمت به؟

جلست على طرف سرير عريض عليه فرو أبيض طيب الرائحة منتظرة مصيرى. أفكر فى كل الاحتمالات. أتخيل نفسى أمام شامل ذى الوجه البشع. أسبه وأبصق عليه ثم أستل خنجره وأقتله به!

أتخيل نفسى ساجدة على الأرض أمامه ودموعى تغرق الخيمة أرجوه ألا يمسنى. أن يدعنى أعود إلى أهلى. وليطلب ما يشاء من أموال وهم سيدفعون. لن يبخل أبى بشئ فى سبيل استعادتى.

انتظرت وحدى طويلا. علمت أن شامل كان يصلى بأتباعه شكرا لربه على النصر الذى حققه. وأنه يوزع عليهم الأغنام. ويعطى الفقراء نصيبهم منها. لكننى لم أكن وحدى تماما. كان عصفورى الجبلى معى. يقف أعلى القائم الرئيسى فى الخيمة. كان ينظر فى عيني كأنه يعزينى ويقول لى:

لا تخافى يا أميرتى فأنا معك!

لقد حاول الكثيرون من رجال شامل الإمساك به فلم يستطيعوا. حاول بعضهم ملاطفته فعضه. بل إنه كاد يفقأ عين أحدهم. فهل يمكن أن يفقأ عيني شامل الرهيب؟!

دخل شامل الخيمة.

كانت صورته مختلفة تماما عما فى خيالى. كان طويلا. رشيقا. جميل الوجه كفرنسى من الجبل. ابتسم عندما رآنى فشعرت بالأمان.

نظرت إلى عصفورى فوجدته يطير نحو شامل. لكنه لم يحاول أن يفقأ عينيه. بل وقف على كتفه وغرد.

أمسكه شامل بلطف. وقال لى بصوت خفيض النبرات:

أهو لكِ؟

هززت رأسى.

يا له من وفى!

ثم تأملنى طويلا بعينين ليس فيهما أثر لقسوة ولا شهوة:

وأنت تستحقين هذا الوفاء يا أميرة!

جلس بجوارى. فقمت مبتعدة خائفة. اتسعت ابتسامته:

لا تخافى. لن أمسك بسوء.

هل أنا جاريتك الآن؟

حتى الجوارى نعاملهن بالمعروف.

لن أكون جارية لك ولا لغيرك.

لن تكونى جاريتى.

صمت لحظة مليئة بالتوقعات من جانبى. فأكمل:

ستكونين زوجتى!

انفضت ملسوعة بالكلمة. صرخت فى وجهه:

سأموت أولا!

لم أر على وجهه أثرا لغضب. وقف. اقترب منى ببطء. وأنا فى مكانى متجمدة أفكر فى أن أجرى مبتعدة ولا تطاوعنى قدماى.

وقف أمامى. أمسك كتفي برفق. حدق فى عيني. كانت عيناه فى جمال عيني عصفورى الجبلى الواقف فوق كتفه. قال:

بل ستعيشين. فكرى. إما أن تكونى زوجتى أو تعودى إلى أهلك. ولا أريد مقابلا لذلك. أنت الآن عندى أغلى من كل ما يمتلك والدك من كنوز!

غادر الخيمة. وتركنى وحيدة.

فكرت فى كل شيء إلا هذا. هل يمكن أن يعيدنى فعلا إلى أبى؟ عاد عصفورى الجبلى يغرد كأنه يساعدنى فى اتخاذ القرار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما يسألنى أحدهم:

لماذا اخترت البقاء مع شامل والزواج منه؟

أقول ببساطة:

لأنه الفارس الذى كان أبى يتحدث عنه. لأننى أحببته.

وما هو الحب.

هو شامل وأنا وعصفورى الجبلى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم أكن زوجته الوحيدة لكننى كنت الأقرب إلى قلبه. كانت زوجته الأولى فاطمة بنت عبد العزيز داغستانية من مدينة أونسكل. ومنها أنجب أبناءه الثلاثة. كما كانت له زوجة أخرى من كمره اسمها داجفاجاراد أصيبت وماتت فى أحولكه هى وطفلها الرضيع. وفى أحولكه ماتت أيضا زوجة أخرى له تسمى جوهرة. أما زيدات فهى ابنة أستاذه جمال الدين. وأمينة من الشيشان.

كما أقنعنى شامل بالزواج منه؛ حبب إلىّ الإسلام فأسلمت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فوجئت بأخى تيخونوف يدخل خيمتى. انتفضت واقفة. احتضنته بشدة. وبكيت شوقا إليه وإلى أبى وإلى أيام الطفولة والصبا فى مزدك.

قال لى:

جئت لأستردك يا أختاه!

بهتُ. لم أدر ما أقول. بينما كان هو يحكى لى بحماس:

أرسل أبى إلى شامل من يفاوضه فى إعادة الأسرى مقابل ما لدينا من أسراهم. ومقابل الفدية التى يحددها. فوافق شامل.

هل وافق على إعادتى؟

صمت أخى. شعرت بقلبى يتهاوى. أأكون قد أحببت سرابا؟ أيتخلى عن شامل بهذه السهولة؟ كان تيخونوف يقول:

عرضنا عليه عشرة آلاف روبل مقابل عودتك إلى مزدك؟

صرخت فيه والقلق غراب أسود ينهش قلبى:

هل وافق على إعادتى يا تيخونوف؟ هل وافق؟

طأطأ أخى رأسه. قال بصوت فقد كل حماسته:

لا!

تنفست بارتياح بينما هو يكمل:

تصورى يا أختاه! رفض عشرة آلاف روبل؟!

وماذا قال يا أخى؟

قال والله لن أتخلى عنها ولو دفعتم لى مليون روبل. قلت له سندفعها.

وبماذا أجاب؟

قال لن أتخلى عنها بكل كنوز الدنيا.

يا حبيبى!

همست بها لنفسى وأنا أشعر بسعادة يحسدنى عليها الملوك. ثم قلت لأخى:

والله يا تيخونوف لو تخلى شامل عنى لما تخليت أنا عنه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شاركت شامل انتصاراته وهزائمه. رأيت كيف يتجمع الناس حوله وهو منتصر. وكيف ينفضون عنه عند اشتداد الكرب. لمست المرارة التى تسحق روحه لخسة الشامتين به والحاسدين له والحاقدين عليه. شاركته الأسر فى كالوكه. شاركته الرحلة إلى اسطنبول، فمكة، ثم المدينة. وعندما أغادر الدنيا ستكون وصيتى أن أدفن بجواره. الفارس الذى زرعه أبى بداخلى؛ قلب الأسد وجرأة الصقر وبهاء قمر وحنان عصفورى الجبلى.

الحاج يوسف حسين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دولة وجيش حديث

كنت مع أمير البحر حسن الإسكندرانى نتفقد العمل فى ورش الترسانة البحرية بالإسكندرية؛ عندما زارنى على الشيشانى الذى كنت صديقا لوالده رحمه الله.

كان على يحمل لى رسالة من شامل بن ذكاو إمام المريدين بالشيشان والداغستان يطلب منى فيها أن أعود إلى بلادى الشيشان وأشاركه الجهاد بعلمى وخبرتى كمهندس تلقى العلوم الشرعية والفنون الحربية والهندسة.

حدثنى على عن شامل حديثا أسكن فى قلبى محبته. وحبب إلىّ الاستجابة إلى طلبه. فأرسلت أطلب مقابلة محمد على باشا واستأذنته فى الاستقالة من عملى بالحكومة المصرية.

قال لى ولى النعم:

اذهب حاج يوسف على بركة الله. وبلغ شامل أفندى أن قلبنا معه. وأننا سنتابعه فربما يحتاج إلينا.

وإذا احتاج يا باشا؟

لن نتأخر عنه حاج يوسف. تأكد من ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما قابلت شامل تأكدت أن على الشيشانى صدقنى الحديث ولم يبالغ.

كان أظهر ما لاحظته فى الرجل أنه حالم أو كما يقول الأوروبيون رومانتيكى. فهو مغروس بكليته فى واقع الحرب والكر والفر. ومع ذلك يحمل فى قلبه أحلاما تسع عالما بأسره. عالم القوقاز. يحلم بدولة قوقازية موحدة. بجيش على النمط الأوروبى الحديث.

بشريعة الله تحكم. بالوقوف فى وجه الروس وهزيمتهم. بمد جسور العلاقات بين القوقاز وأوروبا.

وكانت العقبات فى طريق أحلامه كثيرة لدرجة تجعلها مستحيلة. الشعوب الكثيرة التى يتكون منها شعب القوقاز. اللغات واللهجات التى لا يفهم بعضها بعضا. الثارات والحروب بين القبائل والعشائر. الابتعاد عن الدين والانغماس فى شهوات الدنيا. ارتماء الخانات والكبراء فى أحضان العدو الروسى. والتجاء قرى ومدن بأكملها لحمى الروس لدرجة أنهم كانوا يسمون شامل بالمفسد الفتان مثير الفتن.

قلت له:

والله إننى لأشفق عليك!

ممَ تشفق علىّ؟ من واقع شعبى أم عدوى؟ من أصدقائى أم أعدائى؟

من أحلامك!

لم يكن هناك وقت للكلام كما يقول شامل. كنا نعمل فى كل لحظة وفى ظروف بالغة الصعوبة والعداء. فأنشأنا مصانع لإنتاج البارود والذخيرة وتصنيع المدافع. وتم إنشاء الجيش النظامى الحديث بعد أن طرد الإمام الدراويش وأعلن أنه يريد فقط مجاهدين يحملون السلاح. لكنه ابتكر نظاما يعطينا ميزة الجيش الحديث مع مراعاة ظروف حياتنا وضعف إمكاناتنا.

كان تنظيم جيش المريدين يقوم على النظام العشرى. فأعلى رتبة فى الجيش هى رتبة النائب. وكان عدد النواب مائة. تليها رتبة المرشد وكانوا ألفا. ثم فرق العشرات والمئات والخمس مئات. ولكل فرقة قائد. هذا غير كتيبة الحرس الخاص. وكان الجنود

يلبسون التشركيسكا (المعطف الشركسى) بنى اللون. أما اللون الأسود فكان للضباط. وكان الجميع يضعون على رؤوسهم عمائم خضراء. أما المعاطف فكانت سوداء اللون. وكذلك كانت راية الجيش.

كان يتم اختيار فرد واحد من كل عشر أسر لينضم إلى الجيش جنديا أو ضابطا. ويكون على باقى الأسر مساعدة أسرة هذا الفرد فى أعمال الحقل من زراعة وجنى محصول وبيعه ورعاية أولادهم وحيواناتهم وغير ذلك من أمور الحياة.

وعند الحاجة إلى مزيد من الرجال كان يلتحق بهذا الجيش رجل من كل أسرة. أما عند اشتداد الخطر فكان كل رجل قادر على حمل السلاح ينضم للجيش.

وبذا أصبح تحت قيادة شامل جيشا نظاميا يضم حوالى ستين ألف محارب استطاع أن يحقق به عشرات الانتصارات على الروس.

كما قسم شامل دولته الممتدة من داغستان إلى الشيشان إلى مقاطعات بكل منها نائب له ومعه مفتى يعاونه أربعة قضاة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن شامل مجرد زعيم عصابة جبلى كما يحاول أعداؤه أن يصوروه. كان الرجل حاكما يعمل فى ظروف غير مواتية. حاول أن يستفيد منها بقدر الإمكان. نجح أحيانا. فشل فى أحيان أخرى. لكنه لم يكف عن المحاولة.

كانت حربه ضد الروس خير معين للعثمانيين فى حرب القرم. حتى أن السلطان عبد المجيد منحه رتبة (قائد الخانات) .

ومد جسور العلاقات مع محمد على باشا بمصر والتى كان يمكن أن تثمر تعاونا كبيرا يساعد شامل فى حربه. لكن انكسار محمد على باشا أمام العثمانيين بمساعدة الدول الأوروبية أعاق تلك الخطط.

كان شامل رئيسا لوفد القفقاس الشمالية فى مؤتمر الصلح بباريس. وهناك طالب دول أوروبا وكل المشاركين فى المؤتمر بالعمل على وحدة القفقاس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يوسف الكمرى..مثيرو الفتن

كانت فى نفس الإمام غصة من أهل كمره. بلدته التى ولد بها والتى ولد بها قبله الغازى مولاى محمد. كانوا من أكثر الناس رفضا للمريدين وتخليا عنهم.

كان الإمام شامل يحرص على تطبيق أحكام الشريعة بحذافيرها. ويتشدد فى ذلك. إنه يعلم أن هذه البلاد أصبحت مسلمة اسما فقط. تغلغلت فيهم عادات الروس وأخلاقهم. ركنوا إلى الدنيا. ينتشر بينهم الميسر. يشرب أغنياؤهم الفودكا. ويشرب الفقراء خمر الشعير. لا يتورعون عن السرقة. القتل والثأر هو حكاية كل يوم المعتادة بينهم. وهم جبليون صعبوا المراس لا يمكن تغييرهم بسهولة.

لذلك اتخذ التشدد سبيلا ليسبكهم جميعا فى قالب الشرع. وليوحد بين القلوب المتنافرة. وليجمع كلمة القبائل المتقاتلة والعشائر المتطاحنة.

يرى الروس يقفون له بالمرصاد. يجمعون حولهم الأنصار من أهل القوقاز. فلا يجد سبيلا لمقاومتهم إلا الشدة فى ردع الخارجين عليه.

كان الإمام يسير فى أحد شوارع كمره. يحمل عصاه. رأى بعض النساء يجلس على قارعة الطريق متبرجات فى أيديهن مغازل الصوف. معهن رجل عجوز يتحدث إليهن فيضحكن بصوت عالٍ. اقترب الإمام من الرجل غاضبا. قال له:

هل أمرت بالقعود مع النساء على قارعة الطريق يا رجل؟

ورفع عصاه ليضربه بها. فجرى الرجل. سقط رداؤه وهو يجرى. ظهرت عورته. ضحكت النساء. عبس الإمام فى وجوههن. رفع العصا عليهن فأسرعن إلى بيوتهن. إلا واحدة واجهته.

ليس من حقك أن تضربنا! ابتعد عنا! إننا أحرار نفعل ما نشاء!

فضربها الإمام بعصاه. فهربت منه.

لكنها فى اليوم التالى ذهبت إلى القاضى وطلبت منه محاكمة الإمام لأنه حاول قتلها.

طلب القاضى حضور الإمام للتعذير بين يديه لأنه أنكر المنكر دون إذن من القاضى. فحضر الإمام. وقف أمام القاضى الذى أمر بجلده عشرين جلدة.

أخذ الجلاد يضرب الإمام الذى أحس بدماء تنقذف من صدره. فقال للجلاد:

لقد انفتق جرح صدرى!

كنت أظن أن جرحك اندمل وإلا لما ضربتك.

كان أهل كمره يسمونه مثير الفتن. وكانوا يسعون للتخلص منه ومن المريدين. وعندما حاصره الروس فى أحولكه كان رقباء الجيش الروسى وعيونه من أهل كمره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أكان الإمام محقا فى تشدده؟ أكان عليه أن يكون أكثر لينا ليكسب قلوب أهل كمره؟ لكن؛ هل كان سيكسبهم لو كان أكثر لينا؟ أتذكر قول شعيب الباكنى عن أهل داغستان قبل الغازى مولاى محمد وخليفتيه حمزت وشامل "كانوا قد اعتادوا رسما شيطانيا،وكتبا عاديا، يعملون كل وقت بالرسم لا بالشرع،

ولايستمعون إلى وعظ العلماء ونصيحة الخطباء . وكانوا دائمين على هذا الحال الفظيع والأمر الشنيع، قائمون على أمر العرفاء الجهلاء، والذين ليس فيهم رائحة من العلوم والمعرفة الذين هم أهل النار بنص الحديث والقرآن". فهل كان يصلح مع هؤلاء اللين؟

كان على الإمام أن يكون شديدا. مخيفا. وإلا فلن ينفذوا أوامره. ولن يمتثلوا لما يحاول أن يرسخه فيهم. كان يقطع يد السارق. ويقتص من القاتل. ويجلد شارب الخمر. ويرجم الزانى. كما كان يكتب إلى نوابه ألا يتسامحوا أبدا فيما يخص أحكام الشريعة ولا يتهاونوا فى تطبيقها. "من العبد الذليل المسكين شامل إلى المشهورين بالصيت والفضل : ملا وقربان محمد الكرطيين . سلام عليكم ... أما بعد. فشمروا ذيولكم لإقامة شرع الرحمن. وإزالة نهج الشيطان... وأقول فى حق كل أحد : عفا الله عما سلف، لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم إن أقمتم الشريعة من الآن . وإلا فلِى عليكم وعلى كل من يُحاد الله ورسوله دعوى لا تنقطع حتى أَغلب أو أُقتل إن شاء الله".

وكان حريصا على الغابات. يعلم أهميتها الدفاعية. لذلك تشدد مع من يدمر شجرة دون إذن منه. حيث كانت الغرامة هى ثور أو بقرة مقابل كل شجرة مقطوعة. بل إنه ذات مرة نفذ حكم الإعدام شنقا فى أحد الأهالى الذى دمر مساحة كبيرة من غابة ليبنى حظيرة، ليكون عبرة لغيره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذات مرة كان الإمام رائق المزاج. كان يسير فى الغابة مبتسما كأنه يستعيد ذكرى طفولة سعيدة. أو نصر مبين. أو كأنه يرى أملا يتحقق. فانتهزت الفرصة لأسأله:

ألا زلت غاضبا من أهلك فى كمره يا إمام؟

تغير وجهه. التفت إلىّ مغضبا. لكن ملامحه لانت عندما رأى ابتسامتى الودود:

أهل كمره أهل شقاق وخيانة يا يوسف! عاندونا وحاربونا وحاولوا قتلنا أو تسليمنا لعدونا.

لكننى منهم يا مولاى. وها أنا معك الآن.

مثلك قلة يا يوسف.

لكنك كنت شديدا معهم يا مولاى.

كنت شديدا على نفسى أولا يا فتى! وعلى المريدين. ثم على كل الناس. إننا شعوب عنيدة لا تصلحنا إلا الشدة. وإذا ركنا للدعة ضاع ديننا وضعنا.

كان الإمام يشير إلى طرده للمريدين الدراويش عندما خلف حمزت.

قال لهم:

إننى أريد جنودا لا دراويشا. فمن كان يصلح للحرب فليبق معنا. ومن لا طاقة له به فليعد إلى دياره. يرعى أهله ويزرع حقله.

قلت له:

يا إمام! كان الرسول إذا خير بين أمرين يختار أيسرهما. وكنت أنت تختار أشدهما؟

كان الرسول مؤيدا من السماء. وأنا يحاربنى أهل الأرض وأهلى يا يوسف. لكن..

وصمت طويلا. كان يحدق فى ورقة خضراء تنعكس عليها أشعة شمس الظهيرة. لكننى أعلم أنه يفكر فى شيء آخر. ربما لا يرى ورقة الشجرة. إنه ينظر إلى داخله. التفت إلىّ بملامح كلها جدية وحيرة:

ربما يا يوسف.. ربما..

وانتظرت أن يشرح ما يقصده. يكمل كلامه بعد "ربما" هذه. لكنه مد خطوته متوغلا فى الغابة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تورناو..أسير القيصر

لم يكن سهلا حصولى على دعوة لحضور الحفل القيصرى الذى يضم نخبة المجتمع الروسى الأعلى، لكننى استطعت أن أدبر أمرى بحيث أكون موجودا، إذ لم أتخيل أن يفوتنى هذا المنظر الرائع، حيث يجلس مولانا القيصر، والجنرال بارياتنسكى، والإمام شامل على مائدة واحدة، من كان يصدق؟!

لم أشهد حفلا بمثل تلك الفخامة والروعة من قبل، آلاف الشموع المضاءة، عشرات الخدم فى أزياء زاهية الألوان، الرجال فى أبهى حللهم، عدد كبير من الحاضرين عسكريين يرتدون ملابسهم الرسمية، النساء كأن كلا منهن تزينت لليلة عرسها، على صدورهن العارية تتلألأ أضواء الشموع فى مرايا الجواهر الثمينة، ومن آذانهن تتدلى أقراط بديعة الأشكال.

لكن لا شيء من ذلك كان يشدنى أو يشغلنى، وأظن أن معظم الحاضرين كانوا مثلى، كنا جميعا نفكر فى هذا الرجل الغريب الجالس على يسار القيصر، مديد القامة، لا يقل طوله عن ١٩٠ سنتيمترا، كيف كان يبدو فى المعارك طويلا كجبل، وبلا جسم كشبح؟! كان يرتدى لباسه المعتاد ذى اللونين الأبيض والأسود، والمعطف الفضفاض، وعمامته ذات الحشفة الحمراء، تحوطه مهابة ليث غاضب، وعيناه تتأملان ما حوله كصقر ينظر الأشياء من قمة جبل، فيراها صغيرة جدا، فيحتقرها.

أليكساندر إفانوفتش بارياتنسكى، الجنرال الشاب الذى وضع حدا لحروب شامل وأسره، لكنه لم يضع حدا لأسطورته، يجلس على يمين القيصر، فخورا، معتدا بما حققه لروسيا العظيمة، لكنه يبدى تواضع العسكريين الأصلاء.

بينهما يجلس مولانا القيصر اسكندر الثانى ووجهه الممتلئ يلمع بالسعادة، كان يفرك قبضتيه من وقت لآخر كأنه يضع بينهما أملاكه كلها، ويتأكد أنها ما زالت هناك. وكان جسده البدين ينتفض فخرا وهو يشرح لضيوفه الخطط العسكرية الرهيبة التى وضعها ليصل إلى هذه اللحظة. خطط الجنرال بارياتنسكى هى فى الحقيقة. لكن مولانا يروقه أن تنسب كل الأشياء العظيمة إليه كما نعرف جميعا.

إذا لم تكن تعرف أى من الرجال الثلاثة، إذا كنت تراهم لأول مرة، فكيف تستطيع أن تفرق بين المنتصر والمهزوم والقيصر العظيم؟ بالنظر إلى عيونهم، والمهابة التى تحيطهم، يبدو الأمر صعبا للغاية.

الجميع يشربون الفودكا، ويضحكون، فلم يعد هناك ما ينغص صفو روسيا، فى هذه اللحظة على الأقل، أما شامل فيصب لنفسه نصف كوب من الماء ويشربه على مهل، وهو ينظر إلى ما حوله، وعلى شفتيه ترف ابتسامة ساخرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد خمسة وعشرين عاما من المعارك استطاع الجنرال الشاب أن يهزم أسد القفقاس العجوز.

كانت الحرب التركية الروسية قد انتهت سنة ١٨٥٦، واستطاعت روسيا أن تلقى بمزيد من القوات للمواجهة الحاسمة مع شامل. مائتا ألف جندى على الجبهة القوقازية وضعوا تحت قيادة الجنرال الشاب أليكساندر إفانوفتش بارياتنسكى.

كان شامل قد تخطى الستين من عمره، ولم يكن الجنرال متعجلا، أعطى لنفسه الوقت الكافى ليدرس أسلوب شامل فى

معاركه مع الجيش الروسى، درس كل التفاصيل، ما يمنح عدوه الفرصة لينتصر رغم ضآلة حجمه وضعف إمكاناته، وما يسبب لجيشنا الهزيمة رغم الأعداد الغفيرة والأسلحة المتقدمة.

بعد عكوفه الطويل على دراسة جغرافية معارك شامل مع الجيش الروسى؛ خلص الجنرال بارياتنسكى إلى أن أهم الانتصارات التى حققها شامل لم تكن فى ميادين مفتوحة، بل كانت فى الغابات أو الجبل، حيث يستطيع الاحتماء بهما، والمناورة السريعة بقواته الخفيفة، وحيث لا يملك الجيش الروسى الضخم بعتاده الثقيل نفس القدر من الحرية فى الحركة، وهو ما يجعل قوات شامل تستطيع بسهولة ضرب الجيش من الأجناب والمؤخرة، وقتل العديد من القوات، والاستيلاء على المدافع التى يستخدمونها فيما بعد ضد الجيش الروسى، إنه أسلوب حرب العصابات الخاطفة، لا المواجهة العسكرية الشاملة.

كنت أقف بجوار الجنرال بارياتنسكى وهو ينظر بعينيه الحادتين إلى الغابات الكثيفة، غابات داغستان والشيشان، ينظر إليها ويتمتم بشئ ما، كأنه يحدثها، التفت إلىّ:

أتعرف يا ميخائيلوف تورناو، هذه الغابات هى أقوى أسلحة شامل، هى صديقه الحقيقى الذى يحميه ويمنحه الانتصارات المدوية.

صمت لحظات، لم أرد، ولم يكن ينتظر ردا، لم أكن موجودا حقا، لكنه كان يفكر بصوت مرتفع بمناسبة وقوفى بجانبه:

الذين حاربوا شامل قبلى، وهزمهم، كانوا يحاربونه وهو محتمي بأصدقائه، أما أنا فسأحاربه بعد أن ينفضوا عنه جميعا، سيأتينى

بنفسه، صدقنى يا ميخائيلوف تورناو، سيأتينى بنفسه.

وأخذ يكررها كأغنية تمتعه بشدة:

سيأتينى بنفسه.. سيأتينى بنفسه.. سيأتينى بنفسه..

كان الجنرال بارياتنسكى يعلم أن الغابات والجبال ليست الصديق الوحيد لشامل، هناك الأهالى فى كل مناطق الشيشان وداغستان، إنهم جيش شامل الحقيقى، الجيش الذى يسانده ويسبب مشاكل كثيرة للروس تمنح شامل فرصا للنصر، وكذلك القبائل التى تحارب مع شامل، أو تسانده.

لذلك رسم الجنرال خطة بعيدة المدى:

لن أحارب شامل الآن، سأنظف الميدان من حوله قبل المواجهة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوامر صارمة أصدرها الجنرال بحسن معاملة الأهالى، ومنع التعرض للنساء ولغير المقاتلين، وانتهز أول فرصة تمت مخالفة تعليماته فيها ليعطى المثل للجيش وللأهالى معا، كان لابد أن يعلم الجميع أن تغييرا حقيقيا يحدث، ووصلت الرسالة إلى الجميع.

حاول جندى روسى سكران أن يقبل امرأة شيشانية فى الشارع، قاومته المرأة بعنف، وخمشت وجهه، جن جنون الجندى وهو يرى دمه يسيل، وزملاءه ينظرون إليه ساخرين، أخذ يضرب المرأة بعنف، تدخل بعض الأهالى لكف الجندى عن عنفه، فاعتدى عليهم أيضا، فحاولوا ضربه، تدخل زملاؤه، معركة صغيرة قامت بين الجنود والأهالى، كان يمكن أن تتطور كالعادة إلى معركة هائلة يروح ضحيتها عدد كبير من الأهالى، ثم يتم

شنق أو إعدام آخرين، واغتصاب بعض النساء من قبل الجنود، لكى يتم تلقين الأهالى درسا فى عدم المشاغبة، لكن الجنرال جاء بنفسه، وبسرعة، وفض المعركة، ثم حقق فيها وهو فى مكانه، وتأكد من خطأ الجندى، فأصدر أمرا فوريا بإعدامه، وأمر بسجن زملائه لفترة، وتخفيض رتبهم.

لم يصدق الجند أنفسهم، أما الأهالى فكادوا يجنون من الدهشة، لم يحدث هذا من قبل، ما تحدث عنه مرسوم الجنرال ليس مجرد كلام، إنه أمر واقع، ونفذ بالفعل، هذا الجنرال مختلف، هذا الرجل لا يمكن أن يكون سيئا.

ضمن الجنرال بارياتنسكى أن الأهالى لن ينقلبوا عليه عندما تحين اللحظة الفاصلة، لحظة المواجهة مع شامل، لكنه ظل عينا ساهرة على التأكد من تنفيذ تعليماته وعدم التهاون فيها.

كما أمر باتباع سياسة عنيفة مع القرى الموالية لشامل والتى لا تريد أن تتخلى عنه. لم يكن يحارب تلك القرى. كان يبيدها. يحرقها بمن فيها من بشر وحيوانات وحقول. كان يستعيد مجد الجنرال يرمولوف العتيد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نظرت إلى الجنرال بارياتنسكى وهو يمتص قطرات من الفودكا من على طرف كأسه، بتلذذ ثعلب فى وقت الراحة.

ضحك القيصر لشيء قاله أحد الجلوس على مائدته، وضرب كتف الجنرال بيده بمودة. بينما نظر إليه وزير الحربية بحسد.

ابتسم الجنرال بوقار.

يعرف هذا الرجل ما يفعله، ويمتلك صبر سلحفاة.

عندما تذمر الجنود لأنهم لا يحاربون، كان صارما، فقد أدوا ما عليهم حتى الآن، ضغطوا على قوات شامل بشدة حتى لم يعد لديها إلا الغابات لتحتمى بها، الغابات مثواها الأثير، جلجلت ضحكته:

سأجعله الأخير يا ميخائيلوف تورناو، سأجعله الأخير.

أمر فرقة عسكرية كاملة بوضع السلاح، وحمل الفؤوس، كانت الفرق الأخرى تسخر من أفراد هذه الفرقة، كانوا يسمونهم الحطابين، غضب الجنرال، وأكد أن عمل هذه الفرقة هو أهم الأعمال التحضيرية للمعركة الكبرى، وأصدر تعليمات مشددة، من يسخر من زميله، أو ينعته بلقب الحطاب، يجلد أمام فرقته، وتخفض رتبته.

لم يجلد أحد مطلقا، فلم تخالف التعليمات مرة واحدة.

أزالت الفرقة بفؤوسها مساحات واسعة من غابات الشيشان والداغستان، على طول الطريق بين القلاع والحصون الروسية.

وعندما حاولت قوات شامل مهاجمة بعض القلاع الروسية، فشلت فشلا ذريعا، فلم تكن هناك غابات تحميها، وكانت القلاع جميعا فى حالة يقظة تامة على مدار اليوم والليلة. والمدافع مستعدة لدك من يقترب. لم يكن هناك مجال للتراخى فى وجود رجل كالجنرال بارياتنسكى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أترى هؤلاء القوم يا ميخائيلوف تورناو

كانوا يجلسون فى حجرة كبيرة، يتحدثون بأصوات عالية، يبدو عليهم الإرهاق، والتحفز، والملل، والأمل فى تغيير ما.. عرفت من بينهم أحمد خان والحاج أغا بن المخنولى وأرسلان خان

الذى حاول اغتيال الحاج مراد أمامى ذات مرة وبعض الموالين لشامل.

نعم سيدى الجنرال، إنهم عدد كبير من رؤساء القبائل التى تحارب ضد شامل ومعه.

لن يحاربوا معه بعد الآن

كان الجنرال بارياتنسكى يعلم أنه يقصقص جناحى الصقر باستمالته لزعماء القبائل التى تحارب معه، وكانت الظروف مهيأة لاستمالة عدد كبير منهم، فقد أنهكتهم الحرب طوال خمسة وعشرين عاما، استنفذت مواردهم، وأصابتهم بالفقر، والتشريد، ولا يبدو لها فى الأفق نهاية، وأخذوا يلومون شامل، ويعتبرونه السبب فى كل ما أصابهم، وما سيصيبهم، من داخلهم بدءوا يتخلون عن شامل، وجاء الجنرال ليجنى الثمرات، وعدهم بالسلام، بالحياة، بالثروة، وشفع هذا بالكثير من الهدايا والأموال، فاستجابوا له، وجاء إليه آخرون أيضا.

الآن أعتقد أن اللحظة الحاسمة قد حانت يا سيدى الجنرال.

اقتربت جدا يا ميخائيلوف تورناو، اقتربت جدا لكنها لم تحن بعد.

ما الذى بقى لنا يا سيدى الجنرال؟

الخدعة يا ميخائيلوف تورناو، الخدعة.

لم أفهم، ولم يخبرنى بشيء، لكن عينيه كانتا تلمعان بما خطط له كأنه يراه يحدث أمامه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى كل مكان، وفى كل زمان، يوجد من يستطيع رجل مثل الجنرال بارياتنسكى أن يشتريهم بالمال أو بالمنصب، وهؤلاء هم من أوحوا إلى شامل بالاتجاه الذى سيهاجمه منه جيش القيصر، وبدوا صادقين إذ أخبرت شامل جواسيسه أن الجيش الروسى يتحرك من ذلك الاتجاه، وأنه ما زال فى منتصف الطريق.

كان شامل متحصنا بغونيب مع أربعمائة من مريديه. أخذ يعد جنوده وأهل غونيب لصد الهجوم، غير مدرك أنه وقع فى الشرك نفسه الذى طالما أوقعنا فيه.

كان تحريك جزء من الجيش فى ذلك الاتجاه لإلهاء شامل، لكن معظم الجيش كان يتحرك بسرعة خاطفة من اتجاه آخر.

وكانت المعركة..

فى الحقيقة لا يمكن أن تكون معركة، إنها شيء آخر، لقاء جهنمى بين قوتين غير متكافئتين فى العدد، ولا فى السلاح، بالإضافة إلى المفاجأة التى استخدمها الجنرال بارياتنسكى كسلاح فتاك ضد شامل طالما انتصر به علينا من قبل.

كانت الرؤوس تتناثر فى الهواء كملح رمادى، والخيل تسقط بمحاربيها فتقضى عليهم إن لم يكونوا قد ماتوا بالفعل، والدماء تنفجر شلالات من القلوب، والرؤوس، تختلط التشركيسكا ذات اللون البنى والأسود على الأجساد المتساقطة، وتتطاير العمائم الخضراء عن الروس المتطايرة، وتحترق الرايات السوداء، لا تعرف الضباط من المرشدين من الحرس الخاص من الجنود، الأشلاء مختلطة بفوضى رهيبة، وجنودنا يشفون غليل ربع قرن من الهزائم على يد شامل وقواته، يحركهم الثأر، ويقودهم

الإحساس بالقوة المطلقة مقابل عدو ضعيف، فيسعون لإفنائه..

يصرخ شامل معلنا الاستسلام..

هل لم يسمع أحد صيحته؟

هل تم تجاهلها لفترة لإعطاء الفرصة للجنود ليفنوا عددا أكبر من المتمردين؟

لا أستطيع أن أجيب..

لكن ما رأيته بنفسى هو الهزيمة المطلقة لشامل، وعدم انكساره فى الوقت نفسه!

كان هذا الرجل يستسلم لأجل من يحاربون بجانبه، الذين لم يخونوه، الذين يحاربون من أجل الموت، إذ لا أمل فى نجاة.

لكنه رفض أن يسلم سيفه "ساشقوا" ذا النصل الذهبى اللامع للضابط الذى مد يده إليه ليأخذه، فكر الضابط برهة فى أخذ السيف بالقوة، لكنه رأى فى عيني الشيخ المنهزم موتا أكيدا لمن يحاول ذلك، فجاء الجنرال بارياتنسكى بنفسه كما طلب شامل الذى قال له:

لن أسمح أن تلمس سيفى يد مجهولة أو يد لا تستحقه.

نظر الجنرال المنتصر فى عيني الشيخ المنهزم يسبر غورهما، والشيخ يحدق فى عيني الجنرال بعزة غريبة، والجنرال ينتظر ما سيقوله الشيخ، وعقله يعمل بسرعة فى جميع الاتجاهات استعدادا لرد الفعل الواجب عليه القيام به، والشيخ يقول:

لكننى أقدمه إليك أيها الجنرال لأنك هزمتنى وهزمت جيشى!

يصمت الشيخ، ويتنفس الجنرال بارتياح، ويتلقى السيف من الشيخ، يتأمل طويلا نصله الذى أطاح بعشرات أو مئات من رؤوسنا، ويصحب الشيخ معه إلى خيمته.

"وهكذا أسدل الستار عن المشهد الأخير في هذا الحدث المأساوي. وتدفق الليل على هذه البقعة الدامية من الأرض. وعاد كل رجل من الجيش الروسي قانعا نفسه بأنه أدى الواجب. وحصل الممثلون الرئيسيون على الخلود. أما الباقون فقد عادوا إلى خيامهم يسألون أنفسهم: لماذا حدث كل هذا؟ أمن المستحيل أن يجد كل إنسان لنفسه مأوى يعيش فيه آمنا بغض النظر عن منطوق لسانه ومبادئ عقيدته؟".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ثلاث سنوات من انتهاء الحرب الروسية التركية، وفى استعراض عسكرى مهيب، تم اقتياد شامل إلى موسكو، ليمثل فى حضرة مولانا القيصر العظيم، وكان المحاربون القدامى فى كل المدن على طول الطريق من ستافربول إلى موسكو، يطلبون من الجنرال بارياتنسكى أن يتحدثوا مع هذا المحارب الرهيب، حتى وصل إلى موسكو، فأمر القيصر بإقامة حفل يليق بالحدث العظيم، والأسير الأعظم!

كان الجنرال لا يقل كرما عن الإمام. عندما أسره عامله باعتباره أسيرا فوق العادة وخصما عظيما. أقام بعض الخيام الفاخرة له ولأسرته. وقدم لهم هدايا نفيسه. ساعتان مرصعتان بالماس لزوجتيه زيدات وشعينات . وخاتمان لبنتيه، وقمصانا وحللا فاخرة لحليلتى ولديه كريمة وآمنة . وفروة للإمام نفسه.

ثم نُقل الإمام إلى مدينة تمير خان شوره بكل تبجيل. ومنها استقل عربة الجنرال الفاخرة راحلا إلى موسكو.

فاستقبله القيصر اسكندر الثانى بنفسه بالقرب من مدينة تشوكويوف. وقال له بابتسامة صداقة:

طب نفسا إنك لن تندم بالقدوم علينا!

فشعر الإمام بالراحة إذ أنه كان يفكر طوال الوقت فى سجن شليسبرج الذى مات فيه الشيخ منصور.

بل إن القيصر أمعن فى الحفاوة بالإمام فاصطحبه فى عربته النفيسة ليحضر معه عرضا عسكريا أقيم تكريما له.

ثم أخذه إلى الملكة الأم بمدينة فتزبورغ وقدمه إليها. فلم يكن استقبالها له أقل حفاوة.

نظر القيصر فى عيني أمه بفخر. هزت رأسها كأم سعيدة بابنها الذى وعدها بأن يأتيها بأشهر أعداء الإمبراطورية. وأوفى بوعده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تجمد الهواء من حولنا، خشيت أن أطلق زفيرى حتى لا يجرح الصمت المهيمن على قاعة الاحتفال ويلفت الانتباه لى، كانت العيون كلها مسلطة على القيصر وشامل، الرجفة تزلزل القلوب، وكل منا يفكر فى رد فعل دموى سيحدث الآن..

كان القيصر قد وضع يده على يد شامل وقال له بأريحية:

إننى سعيد بوجودك على مائدتى الآن أيها الشيخ!

وانتظر القيصر ردا لطيفا على مجاملته الرقيقة، لكن الشيخ الذى لا يهن أجاب بصوت هادئ لكنه مسموع:

كانت سعادتى ستكون أكبر أيها القيصر لو كنت أنت أسيرى!

هل مرت دقيقة أم أقل أم أكثر؟!

لا يمكن حساب الوقت الذى مر علينا بعدما قاله شامل، لكن يمكن حساب دقات القلوب ورجفتها، ومئات الأفكار التى مرت بالأذهان، والتى تنتهى جميعا بدماء شامل متدفقة، ورأسه طائرة، وجسده أشلاء.

لكن القيصر خبط شامل على فخذه، وقهقه بشدة ارتجت لها أنحاء جسده المترامية ولغديه العظيمين، قائلا:

أكيد.. أكيد

شملنا الارتياح، فرفعنا جميعا كؤوس الفودكا إلى أفواهنا لنبل حلوقنا الجافة، وحركت النساء ريش مراوحهن على صدورهن، وعلا الصخب من جديد.

كان القيصر سعيدا، كانت لحظة انتصاره الكبرى، ولم يكن ليسمح لأى شي، ولو شامل نفسه، أن يعكر صفو هذه اللحظة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تورناو..شامل فى كالوكه

هل كان شامل الأسير مثلما كان شامل الإمام القائد؟

لا أظن أن روسيا القيصرية عاملت أو ستعامل أسيرا بهذا القدر من التبجيل والاحترام. وتوفر له كل ما توفر لشامل من متاع.

اختار له القيصر بلدة كالوكه. البلدة المفضلة للملكة الأم تتخذها مستراحا لها إذا تعبت. ومشفى إذا مرضت. بلدة تتميز بالفخامة والارستقراطية المتناهية. منازلها قصور واسعة ذات حدائق متنوعة الأشجار والأزهار. شوارعها واسعة نظيفة. أسواقها المنظمة تحوى كل ما يحتاجه البيت. مليئة بالمناظر الخلابة. والأنهار الجارية.

تم تعيين مترجمين لشامل. أنا وافديف بانوف الذى كان ضابطا فى الجيش مثلى. وحارب شامل مثلى. لكنه لم يعرض نفسه للقيام بهذه المهمة مثلى، بل فرضت عليه فرضا. فهو يكره شامل ويكره صحبته. ولم تؤثر فيه خلال شامل وشمائله. ولم تؤثر فيه حتى المعاملة الطيبة للقيصر. ولولا أنه ضابط لا يستطيع أن يرفض تنفيذ الأوامر لرفض هذه المهمة الثقيلة على نفسه. وقد شعر شامل بما يكنه له افديف فتجنبه تماما. فأصبح افديف يقضى يومه وليله فى اعتناء بشاربه الأصفر الكثيف الذى منحته السماء إياه لتعوضه به عما أخذته من شعر رأسه!

خُير شامل فى اختيار القصر الذى يشاء لينزل فيه هو وأسرته. لكنه طلب منى أن أختار له. فاخترت له قصرا واسعا به عدد كبير من الحجرات له ولأسرته ولمن صحبه من مريديه المقربين. كان القصر ذا حديقة غناء اعتاد شامل أن يقضى وقتا طويلا

فيها. يرعاها بنفسه. ويتحدث إلى أشجارها وزهورها حتى لتظن أنهم من أقرب أصدقائه. وكان بالقصر حمام مجهز صالح للصيف وللشتاء فلا يحتاج الإمام أو من معه إلى استخدام الحمامات العمومية. وقد أصدر القيصر تعليماته لحاكم كالوكه بأن يقوم بعمل صيانة سنوية للقصر وما فيه من أثاث. كما خصص له راتبا سنويا قدره عشرين ألف مناة. وعربة فاخرة يجرها حصانان شديدان.

عندما قدم الخدم الطعام للإمام فى أطباق من الذهب والفضة رفض أن يتناوله. وطلب التخلص منها. موضحا لى أن هذا محرم فى دينه.

لم يكن لدى شامل وقت فراغ كثير فى كالوكه. فزائروه من أهل البلدة ومن خارجها دائمو التوافد عليه. يؤنسون وحدته. يناقشونه فى تاريخ حياته ومعاركه. يسألونه عن الإسلام. عن الصوفية. عن القوقاز. عن المرأة فى الإسلام. عن الحرب والحب والدين والحياة. وهو فى كل أمر له رأى. ولكل رأى حجج. ولكل حجة وجاهتها وأدلتها. وإن خالفته يقول:

لكم دينكم ولى دين.

لكنك تستطيع أن ترفض رأيه. ولا تستطيع ألا تحترم حجته.

وقد أمر القيصر أطباءه بعلاج اعوجاج قدمي نجابة ابنة شامل. وكم كان وجهه ضاحكا مشرقا عندما رآها تجرى مقبلة نجوه بلا عرج يعوقها ويشوه أنوثتها، وتلقى بنفسها فى حضنه بينما كان يقلم إحدى الشجيرات. فاقتطف زهرة ووضعها فى شعر نجابة. ثم ضم ابنته إلى صدره طويلا وهو يضحك والدموع تسيل على خديه. ثم سجد لله شكرا. وأطال السجود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتدى شامل سترة شركسية جديدة. وطاقية حمراء عالية لف عليها عمامة بيضاء. ووضع خنجرا فضى فى حزام جلدى حول وسطه. وكانت لحيته قد ابيضت ليس فيها من اللون الأحمر القديم إلا شعيرات قليلة متناثرة.

كان السائس قد أعد العربة الفاخرة المخصصة لشامل. وكنت أنا فقط فى صحبته. جلسنا فى العربة. أصدر شامل أمره للسائس بالانطلاق:

سر يا بنى على بركة الله!

كان السائس الروسى بتلر ذى الشعر الكثيف المجعد والعين اليمنى العوراء؛ قد عاشر شامل لعدة سنوات واستطاع أن يتعلم بعض كلمات اللغة العربية:

إن شاء الله!

قالها بتلر متهللا وهو ينغز الحصانين بمهمازه ليسابقا الريح. فابتسم شامل. بينما قال بتلر لنفسه وأنا أسمعه:

طيرى أيتها الخيل! فمن يستقل العربة هو شامل العظيم!

كان شامل مدعوا للقاء القيصر فى فتزبورج. دخلنا قصر القيصر الذى كان مزدحما بالوزراء والأمراء والقادة وبعض الفاتنات ميزت منهن راقصة باليه نحيفة القوام جميلة الوجه كان القيصر يعجب بها بشكل خاص ويشملها دائما بعطفه القيصرى المميز!

كان فى استقبالنا وزير التشريفات. اصطحبنا إلى حجرة مخصصة لشامل بها مائدة عليها طعام وفاكهة. وقال لشامل بأدب يتقنه الدبلوماسيون:

سيستقبلكم جلالة القيصر عندما تستريحون من عناء السفر وتتناولون بعض الطعام.

بعد الطعام خرجنا نقف مع الواقفين فى انتظار الأذن بالمثول بين يدي جلالته. وبعد دقائق كان القيصر قد خرج إلى الشرفة يستنشق بعض الهواء ويحرك قدميه قليلا. فرأى شامل.

وفعل القيصر ما لم يفعله من قبل. نزل من الشرفة. اتجه مباشرة إلى شامل متجاهلا التحيات والانحناءات التى قدمها كل من مر بهم. مد يده إلى شامل. سلم عليه. ابتسم له. ثم أخذه من يده وصعد به إلى مكتبه.

لم يكتف القيصر بما قدمه لشامل من حفاوة. بل اصطحبه معه فى نزهة مع العائلة الملكية فى المتنزهات الملحقة بالقصر والتى تحوى الكثير من الحيوانات والنباتات النادرة. وقد استغرقت هذه النزهة كل فترة ما بعد الظهيرة.

وعدنا إلى كالوكه محملين بهدايا الملكة لزوجات شامل وبناته. أقمشة فاخرة وأثواب ملكية لا ترتديها سوى أميرات الأسرة المالكة. أما هدية القيصر لشامل فكانت سيفا من الذهب الخالص.

الأهم أن القيصر وشامل اتفقا على تبادل الرسائل بانتظام حتى لا يشعر شامل بأنه منسي أو أن القيصر قد أهمله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن شامل سعيدا بكل هذه الحفاوة بقدر ما كان أسيرا لها.

كان يعرف دوافعها الحقيقية. فلم يكن القيصر يحبه قطعا. وإن كان يحترمه كما تيقنت بنفسى.

لكن القيصر كان من الذكاء بحيث لم يقتل أسيره بمجرد أن ظفر به كما حاول بعض العسكريين أن يضغط للوصول إلى هذه النتيجة. فالحكمة المستخلصة من عبر الماضى تؤكد أن قتل إمام للمريدين يكون عادة بداية ميلاد إمام جديد. أما الإبقاء على الإمام الحالى. ومعاملته بتبجيل واحترام فوق العادة. فهى سياسة بعيدة المدى ترمى إلى عدم ظهور من يجمع المريدين حوله فى جيش جديد يقلق الإمبراطورية. كما أنه يعطى مثالا حيا على كرم القيصر الذى يجب أن يخجل من يفكر فى محاربته بعد كل ما قدم لإمام المريدين الذى حاربه لربع قرن.

كان شامل يدرك كل ذلك لكنه لا يستطيع أن يكون جاحدا أو ناكرا للجميل. وعندما كان يشعر بأسى لفقدانه للحرية. ويشعر بالشوق إلى الغابات صديقته. وإلى الجبال التى كان صقرها المحلق. كانت دموعه تجرى على خديه فيطفئ نارها بالصلاة.

وقد أثمرت هذه السياسة فأصبح شامل على حد وصف أحدهم:

مقيدا مأسورا بسلاسل الإنعام، مكتوفا بحبال الإكرام.

حتى أن شيخه جمال الدين الغموقى أرسل إليه من تمير خان شوره رسالة قال له فيها:

"من الشيخ الهرم السيد جمال الدين إلى ولده الأعز الأكرم شامل، وإلى باقى العيال . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد، فمذ ما سمعت حالكم وشانكم حمدت الله تعالى كثيرا على ذلك، واحمدوا أنتم واشكروا على ما أنعم عليكم بالنعم العظام، وادعوا للبادشاه (القيصر) بالخير . فقد سمعنا عظم رحمه وإحسانه إليكم بالنعم الكثيرة مع كونكم من المسيئين إليه

... فيجب علينا وعليكم الشكر على نعمه والدعاء له بالخير كل وقت بازدياد جاهه ؛ لأن من لم يشكر الخلق لا يشكر الخالق، وشكر المنعم واجب كما لا يخفى عليكم".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توركاو..الأسير والمترجم

عندما جئت لأقدم له نفسى كمترجم كانت تشغلنى فكرة أرجو ألا تعطيك سببا للسخرية منى.

ما هى رائحة شامل؟!

لدى اعتقاد راسخ أن لهذا الرجل رائحة مختلفة. إننى أعرف رائحة الرجال جيدا. رائحة الرجل عندما يخاف. عندما يقتل. عندما يعشق. عندما يعاشر امرأته. عندما يتفجر قسوة. أو عطفا. رائحة الجندى المنتصر. رائحة الجندى المهزوم. فهل لشامل رائحة كرائحتنا نحن الرجال العاديين أم له رائحة مميزة؟ وكيف تكون هذه الرائحة؟ كيف يمكن أن أشمها وأعرفها وأستوعبها؟

كان فى حجرة صغيرة منعزلة فى أطراف حديقة المنزل. مبنية من فروع الأشجار. يجلس على قطعة من جلد أسد كان قد اصطاده بنفسه. يقرأ القرآن وبعض الكتب الأخرى. ثم يطلق عينيه إلى حيث لا يمكن أن يصل غيره.

فوجئ بى أمامه، رفع رأسه ببطء، هذا الرجل لا يهزه شئ، ولديه ذاكرة من حديد:

هل رأيتك من قبل؟

نعم.

كنت مع الجنرال بارياتنسكى؟

نعم.

وكنت فى حفل القيصر؟

نعم.. نعم.

تفضل بالجلوس.

كنت أيضا أسيرك ذات يوم!

وسع لى مكانا بحيث أكون فى مواجهته تماما..

ميخائيلوف تورناو. مترجمك الخاص.

من اختارك لى؟

أنا الذى طلبت هذه المهمة لنفسى.

لابد أن لديك سببا قويا لذلك؟

نعم.. فعلا

وما هو؟

أريد أن أشم رائحتك!

قهقه الرجل، شممت رائحة جبال القوقاز البكر، رائحة الثلج وهو يذوب من فوق القمم فى مطالع الربيع، والغابات وهى تغنى وتتنادى بالحياة، رائحة الدماء تسيل من أجل مبدأ، دين، من أجل الحرية، رائحة النصر، ورائحة الأسر..

ابتسمت بخجل لعدم قدرتى على التعبير، لكننى شعرت بأنه يضحك بسماحة لا سخرية، فتجاوزت خجلى بسرعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يعلم شامل قطعا أن مترجميه؛ وأنا أحدهما، وخدمه، بل وبعض زائريه، لم يتم اختيارهم عشوائيا. وهم يكتبون تقاريرهم الدورية حول شامل وتحركاته وزواره. ماذا يفعل؟ ماذا يقول؟ من يزوره من الشيشان وداغستان بالذات؟ فيم يتحدثون؟ ما المريب فى

هذه اللقاءات؟ هل يقوم شامل أو أحد المقيمين معه بحركات أو اتصالات مقلقة بشكل ما؟. إلى آخر هذه الأسئلة التى يمكن أن تتوقعها فى مثل هذه الحالة.

ومع ذلك فلم يكن شامل يخفى شيئا، أو يتخابث، عندما يتحدث معى أو مع غيرى. كان حريصا على الأدب وعفة اللسان مع الصراحة المطلقة.

كانت حواراتنا فى حجرته المنعزلة. أو فى حديقة منزله. أو فى شوارع كالوكه. تعطينى هذه الحوارات ليس فقط مزيدا من المعلومات، بل الأهم هو كيف يفكر هذا الرجل وكيف يشعر.

سألته:

خمسة وعشرون عاما من الحروب المستمرة، حاربت فيها اثني عشر جنرالا روسيا. أخطرها كانت معارك الغابات التى امتدت لأربع سنوات، هل كان لديك أمل فى نصر نهائى؟

وما النصر النهائى؟!

النصر الذى لا حرب بعده، مثلما.. مثلما

قل، لا تخجل.

مثلما انتصرنا عليك، وها أنت أسير القيصر.

نعم، أنا أسير، ولن أحارب بنفسى بعد الآن، لكن هذا لا يعنى أننى توقفت عن الحرب، أو أن حرب قومى لكم قد توقفت.

يقول أحد جنرالاتنا تعليقا على حرب الغابات "يا لها من مصيبة مفجعة! إن الرجال الذين تناثرت أشلاؤهم هنا كان بمقدورهم فتح بلاد تمتد من اليابان في الشرق إلى أوكرانيا في الغرب"!

وبكم يقدر جنرالكم عدد هؤلاء الرجال؟

حوالى عشرة آلاف جندى روسى.

أعتقد أنه مصيب، لكن هل حدثكم عن المدافع أيضا؟

نعم، إنها غنيمتك الكبرى، أربعة مدافع استطعت غنمها من جيشنا أثناء معاركك الخاطفة فى الغابات. وبها انتصرت فى معاركك الأخرى. وغنمت أربعة عشر مدفعا إضافية كانت قوة هائلة تساندك فى حربك لنا طوال ربع قرن.

لكن هل حدثكم جنرالكم عن قارع الطبول؟

أى قارع طبول؟

قارع الطبول الروسى، لقد كان مفتاحنا للنصر!

نظر الشيخ فى عيني. شعرت أنه يتأمل أحشائى. يعد ضربات قلبى. يتوغل فى مخى ليقرأ ما أفكر فيه. لكننى فى هذه اللحظة بالذات لم أكن أفكر فى شيء إطلاقا. كنت أغوص فى عينيه فأرى ما يتذكره كأننى فى وسط المشهد..

أربع سنوات من الكر والفر، جنود شامل كأشباح على خيول غير مرئية، تظهر فجأة، تنقض على جيشنا، تقتل، تغنم، تختفى.

مكافأة مغرية للقبض على شامل حيا، أو الإتيان برأسه ٤٥ ألف روبل.

رسالة يجدها الجنرال الذى رصد المكافأة على سريره. رسالة بتوقيع شامل. يستشيط الجنرال غضبا. يعاقب حرسه بقسوة. شامل لم يسلمه أحد من رجاله مقابل هذا المبلغ الضخم، لكنه يستطيع الوصول إلى سرير الجنرال لوضع رسالته. هو إذن يستطيع الوصول إلى رأس الجنرال نفسه. الرعب يسيطر على الجميع. لم يعد الجنود، ولا الجنرال نفسه، يفكرون أنهم

يحاربون بشرا. كانوا يحاربون أشباحا لا يقف فى طريقها شيء. انتصر شامل بالرعب الذى بثه فى قلوبنا.

رسالته كانت ساخرة. مزلزلة. كانت ردا زاد من كراهية الجنرال له. حقده عليه، ورعبه منه. مما جعله يقع بسهولة فريسة الخدعة الكبرى التى كان قارع الطبول الروسى مفتاحها الأول. وجواسيسنا الأغبياء مفتاحها الأكبر.

" كم كانت سعادتي حين علمت أن رأسي تساوي هذا الثمن الضخم، ولكنك لن تكون سعيدًا حينما أُخبرك أن رأسك، بل رأس القيصر ذاته لا تساوي لدي كوبيكا واحدًا".

يبدو أنك تحفظ رسالتى ؟

حتى القيصر نفسه كان يحفظها. تعلم أننا معجبون بكم جدا أيها الشيخ.

نعم.. نعم.. أعرف هذا الإعجاب الذى يؤدى إلى القتل.

هذا هو حالنا.

وهل تفهمه؟

صدقا.. لا.

فى ذلك الوقت كان الجيش الروسى قد تعب من حرب العصابات التى شنها عليه جيشى لمدة أربع سنوات متتالية. كل يوم. كل ليلة. فى كل مكان. فى معسكرات الجيش الروسى. فى القرى والمدن الموالية لكم. لا راحة كان يمكن أن يشعر بها جندى روسى ولا أمان.

أعرف ذلك تماما. عشته بنفسي. رأيت الرعب فى عيون الجنود من غصن شجرة يحركه الهواء. أو من شبح ذئب فوق جبل.

كان جواسيسكم قد أصبحوا معروفين لنا تماما. لكننا تركناهم بيننا. وكنا نستفيد بهم فى تضليلكم. نوحى إليهم أننا سنهاجم من الجبل. ونهاجم من الغابة. أو أن غزوتنا ستكون فجرا ونقوم بها قبيل المغرب. وهكذا..

نفس الخدعة التى انتصر عليك بها الجنرال بارياتنسكى؟

نظر الشيخ إلى أصابع قدميه. ثم إلى قطعة فى السماء تبين من خلال السقف. كانت الشمس تغرب ببطء وجلال. شعرت بمدى قسوتى وأنا أستحضر لحظة هزيمته وأسره بينما هو يحكى لحظات مجده الكبرى.

حاولت أن أعتذر. أشار لى بالصمت. بينما لم أكن قد عثرت بعد على الكلمات المناسبة للاعتذار.

لا تعتذر يا ميخائيلوف تورناو! لقد اعتدنا منكم إطفاء نيران فرحتنا. واعتدنا أيضا ألا نهتم بذلك.

سيدى.. سيدى..

أنت لم تقل سوى الحقيقة. ربما قلتها فى وقت غير مناسب. لكنها الحقيقة على كل حال. ونحن لا نغضب أبدا من الحقيقة حتى ولو كانت مرة أو مؤلمة.

بتمكن محارب قدير صمد أمام إمبراطورية كبرى طوال ربع قرن دون أن يهتز؛ استطاع الشيخ أن يستعيد نفس الملامح. ونفس نبرات الصوت التى كان يحكى بها:

كان جيشكم بحاجة إلى نصر يحفظ به ماء وجهه، وقررت أن أقدم له هذا النصر على طبق من فضة.

كيف؟

أمرت رجالى بالانسحاب إلى الجبال، انسحاب جماعى وشامل.

لماذا؟

رسالتان أردت توجيههما من هذه الحركة، الأولى لقائد جيشكم، عبر جواسيسه الذين أعرفهم، ومضمونها أننى وجيشى قد تعبنا، وأرهقنا، ولم تعد لدينا القدرة على مواصلة القتال، وأننا هربنا إلى الجبال، فأصبحنا صيدا سهلا.

والرسالة الثانية؟

كانت إلى قوادى، هذه الحركة مجرد خدعة، ننسحب، ليطاردنا الروس داخل الغابات الكثيفة، فننقض عليهم بقدرتنا على الحركة السريعة والمناورة فى الغابات، فنقضى عليهم وهم ذاهلون غير قادرين على الحركة أو رد الفعل.

وقارع الطبول الروسى؟

لقد أسره أحد جنودنا، واستبقيناه لعدة أشهر لعله تكون له فائدة. وفعلا كانت له فائدة كبيرة اقترحها ملا رمضان الجارى، أحد قادتى، وأحد العلماء الذين حاربوا معى.

توقف الشيخ، هطلت دموعه فجأة، غزيرة، لكن صفاء عينيه لم يتعكر:

أنت تبحث عن سرى، لا سر لى، السر فى هذا الدين، فى هؤلاء العلماء الذين علموا أن العلم جهاد، وأن الجهاد لله ولنصرة دينه، وليس للدنيا، إننى أبكى فراقهم، وأغبطهم جنات النعيم التى يعيشون فيها الآن مع الصديقين والشهداء، لقد ماتوا جميعا وهم يحاربون، ملا رمضان الجارى، سورخاي الأوراي، بارتيخان، أبو بكر الجركوي.

أما على بك خويصلو قاضى مدينة أرغن فلم يكن هناك مثله، ياله له من شهيد! رأيته فى معركة جرقطة وقد أصابته طلقة مدفع فى ساعده الأيمن، مما عطله عن مواصلة القتال، داس بقدمه على هذا الساعد، وقطعه بيده اليسرى، وواصل القتال حتى انتصرنا، ثم استشهد بعد ذلك فى معركة أحول كوح، رحمهم الله جميعا وألحقنا بهم.

وماذا كان اقتراح ملا رمضان بخصوص قارع الطبول؟

مسح الشيخ دموعه بكمه، ابتسم:

اندفع الجيش الروسى عبر الغابات ليطاردنا، فتعلق بها، وعاقته عن الحركة، كانت الغابات صديقتى التى لا تخوننى أبدا، لذلك قتلها الجنرال بارياتنسكى ليستطيع أن يأخذنى، وكان قارع الطبول الروسى يقوم بعمله المعتاد، وعلى رقبته سيفنا مسلط، فيظن الجنود أنه يحثهم على التوغل أكثر، فيواصلون التقدم للأمام، فننقض عليهم من حيث لا يتوقعون، من قمة الجبل، من فوق الأشجار الضخمة، من تحت الأرض، من السحاب، من ضباب عقولهم التى اهتزت ولم تعد قادرة على التفكير بصفاء، فيفقدون أكثر من نصف ضباط الحملة، ومدافعهم، ونحقق النصر الذى يزلزلهم.

عشرة آلاف رجل يقتلون فى أربع سنوات، ألم تفكر فى أن لكل منهم زوجة، أم، والد، ولد، ألم تشعر لحظة بأنك تقضى على حياة آلاف الأسر بحربك هذه؟

كانت سخرية الشيخ هذه المرة واضحة ليس فقط فى ابتسامته، بل فى نبرات صوته أيضا:

هل قلت لى إنك جندى؟

نعم.. نعم.. لكن..

ولم أعرف كيف ألملم شعث ارتباكى..

كان الرجل يحارب من أجل قضية، ودين، ومن أجل حرية قومه، وكنا نحارب من أجل الإمبراطورية، من أجل مزيد من الأرض نحكمها، من أجل ثروات تلك الأرض، من أجل منفذ إلى المياه الدافئة، كم قتلنا من شعبه، كم أباد جنرالاتنا من أهله، ونالوا الأوسمة على ذلك..

لم يقل شيئا، لم يكن فى الحقيقة بحاجة لأن يقول شيئا، إلا لو كان يعتقد أننى غبي جدا، شكرا للرب، إنه لم يظن بى ذلك، فظل على صمته، وأنا أيضا فضلت أن أصمت قليلا..

كل منا كان يفكر فيمن فقدهم من شعبه، ماذا لو كان هؤلاء الناس بقوا أحياء، لا ليفتحوا بلادا أخرى كما قال الجنرال، بل ليزرعوها، ليصنعوا الحياة لا الموت.

قلت للشيخ:

تزوجت أكثر من مرة، أنجبت الكثير من الأولاد والأحفاد، كيف تسنى لك ذلك وأنت دائما فوق صهوة جوادك، وأنت فى أتون حرب لا تتوقف؟!

ألم تكن تفكر فى الحياة الآن؟!

بهت، أيقرأ الشيخ أفكارى أيضا؟

اسمع يا ميخائيلوف تورناو!

واتخذ هيئة حكيم يعظ:

إننا نولد لكى نعمر الحياة، ونمد فى عمرها، بالزرع، بالأولاد، بالكلمة الطيبة، بالعلم.

لكنك كنت تحارب، وتقتل آخرين.

كنت أحارب من أجل الحياة، كنت أقتل البعض ليعيش آخرون يستحقون الحياة، أقتل من يحاول القتل لا من يحاول أن يعيش.

هل كنت تظن أنك ستنتصر الانتصار النهائى يا شيخ شامل؟

أنت تعود مرة أخرى إلى نفس السؤال يا ميخائيلوف تورناو، وقد سألتك ما هو الانتصار النهائى لكنك لم تجب إجابة شافية.

لكنك تفهم ما أعنيه؟

ربما.

إذن؟

سأجيبك بقدر ما أفهم من سؤالك.

وأنا أسمع.

إننا لم نكن نحارب من أجل الانتصار على الإمبراطورية الروسية يا ميخائيلوف تورناو! لقد كنا نحارب من أجل الانتصار على الفناء الذى تسعى إلى تحقيقه هذه الإمبراطورية، شعلة الروح التى يحملها شعبنا، الله، الحرية، هى هدفنا النهائى من الحرب، لذلك فقد انتصرنا، دائما كنا منتصرين، حتى الآن؛ وأنا أسيركم فى تلك البلدة الصغيرة، أنا منتصر، لأن شعبى لم يتخل عن ربه، ولم يفقد حريته.

لكنك فقدت حريتك؟

لم أفقدها، الحرية أن تكون حرا وأنت قيد الأغلال، ألا ترانى حرا الآن، ألا تشعر بذلك؟ هل شعرت أنا أننى فقدت حريتى؟ هل

شعر قيصركم أنه استعبدنى؟ لا.. لا.. لقد قيدتم حركتى الجسدية لا أكثر.

أنت أول من أعرف أنه يحارب ولا يضع النصر النهائى نصب عينيه.

لست أولهم، إنهم كثيرون فى تاريخنا، أنت فقط لا تعرفهم، وقد عرفنى بهم الأمير العظيم

أى أمير؟

عبد القادر.. الأمير عبد القادر الجزائرى.

هل شعورك أنك تمثل شعبك هو الذى كان يمنحك القدرة على المواصلة رغم الهزائم الأخيرة وتخلى الأنصار عنك؟

لا يا ميخائيلوف تورناو. لا.

لم أتوقع هذه الإجابة.

أنت لا تفهم ثقافتنا جيدا يا صديقى. ما كان يدفعنى هو شعور داخلى بالواجب تجاه دينى وربى. ولو تخلت الدنيا كلها عنى لا أتخلى أنا عن واجبى هذا. وما استسلامى الأخير إلا تعبير آخر عن الشعور بهذا الواجب. واجبى نحو من أقودهم. أن أحفظ لهم حياتهم ودينهم وكرامتهم وحريتهم.

شمل الحزن جبال القوقاز وغاباتها وأنهارها. بيوتها وكهوفها. عندما استسلمت. فهل شعرت بذلك؟ وكيف أثر فيك؟

ابتسم بسخرية من خبر الحياة فلم يعد يأبه لها، وبمرارة من يستطيع أن يواجه نفسه بالحقيقة مهما تكن مرارتها:

أنت تبالغ يا ميخائيلوف.

هذه هى الحقيقة التى لمستها بنفسى.

كان بعض قومى ضدى. بعضهم كان سعيدا بأسرى. بعضهم كان سيصبح أكبر سعادة لو قُتلت. ألم تسمع قصائد الشعر التى قيلت ابتهاجا بسقوطى؟

خفضت عيني فى الأرض. قلت بصوت خفيض خجل:

سمعت.

لماذا تخجل يا ميخائيلوف تورناو؟ أنت لست الحاج يوسف إليخساوى الذى ألف قصيدة طويلة يذمنى فيها ويدعونى مثيرا للفتن. أنت لست من علماء داغستان الذين يرون أن حربى هى مجرد إهلاك للنفس والمال لأنها حرب غير متكافئة. أنت لست ممن ظنوا وأعلنوا أننى فعلت كل شيء من أجل الدنيا والمجد. فلماذا الخجل؟

لكن هؤلاء ليسوا كثيرين؟

أعلم هم ليسوا كذلك. لكن لنواجه الحقيقة يا فتى! الحقيقة أنه لن يجمع الناس على شيء ولا على أحد. الحقيقة أنك لابد أن تتوجه بكل أعمالك لله وحده فإذا قدح الناس فيك لم يحزنك ذلك. وإن أحزنك فلا يسوؤك ويكبتك ويدمى قلبك.

شعرت أنه يتحدث إلى نفسه أكثر مما يتحدث إلىّ. الجحود والنكران بل والشماتة التى لاقاها من بعض أهل بلده جديرة بمثله من العظماء حقا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كريمة.. مجاور قبة العباس

كعادته؛ ابتسمت عيناه أولا. ثم تهلل وجهه. بدا أنه قد عاد شابا فوق صهوة جواد على منحدر جبل فى داغستان. رفع يديه وعينيه بدعاء صمت طويل. ثم أطبق جفنيه وهو يمسح بيديه على صدره وقلبه.

قام من سريره. حاولت أن أمنعه. لكنه كان مصمما على الخروج:

تعالى معى يا كريمة؟

إلى أين الآن يا أبى؟

إلى الروضة الشريفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى الروضة الشريفة أحسست أن أبى لم يعد هنا. كان جسده واقفا منتصبا بقدر ما يستطيع. لم يكن يستند إلى عصاه. لكن روحه كانت فى مكان علوى بعيد. كانت دموعه تسيل على خده. تبلل لحيته البيضاء. وتتساقط على الأرض. وهو يدعو قائلا:

يا سيدى. إن كان نيتى، واجتهادى، وسعيى، وجهادى لديك صافيا (خالصا) وعند رسولك مرضيا فلاتخرجنى من جوار نبيك، وأمتنى فى حرم حبيبك، وأرنى وجهه وانفعنى بمحبته، واحشرنى فى زمرته، ولا تحرمنى من شفاعته.

ابتهل إلى ربه كثيرا. ناجى سيدنا الرسول كثيرا. ثم عاد معى إلى البيت.

أيام قليلة. وبدأ لون وجهه يتغير. وأخذ جسده يذبل بسرعة عجيبة. وكانت روحه سعيدة بتحقق رجائها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نحن الآن فى سنة ١٢٨٧هـ ١٨٧١م.

تحقق أمل أبى. مات فى مدينة رسول الله. شيعه كل أهل المدينة وزائروها وعلماؤها. دفن بجوار قبة العباس عم رسول الله ﷺ.

بكيت أبى كثيرا.

أزور قبره كل يوم.

ألاحظ أن عصفورا جبليا يقف فوق القبر. يغرد كأنه يدعو.

أخبرت شنيعات. قالت لى:

إنه عصفورى الجبلى يا كريمة. إنه شامل يزورنا من مثواه بالجنة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..